www.kotobarabia.com
المواجهة
بين الإسلام والغرب
د/ محمد مورو
www.kotobarabia.com

المواجهة

بين الإسلام والغرب

د/ محمد مورو

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

مقدمة ....- ٦ -

الفصل الأول

عودة.. لحروب صليبية جديدة ....- ١٥ -

الفصل الثاني

تاريخي..الصراع الإسلامي الغربي.........................- ٤٢ -

الفصل الثالث

الحضارة الغربية.. والمعايير العالمية ....- ٦١ -

الفصل الرابع

الحضارة الإسلامية والمعايير العالمية.....................- ٧٩ -

الفصل الخامس

الإسـلام..دين وحضارة .... - ١١١ -

الفصل السادس

هـل انقطع التواصل الحضاري الإسلامي؟ .... - ١٢٢ -

الفصل السابع

المستقبل للإسلام .... - ١٣٨ -

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله ويسـعون فـي الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي فـي الـدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾

صدق الله العظيم

سورة المائدة: الآية (٣٣)

مقدمة

يشكل الصراع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من: عدل وتوحيد ومساواة وحرية وبين الحضارة الأوروبية بما تمثله من: وثنية وقهر وعنف ونهب وعنصرية مساحة واسعة من التاريخ والجغرافية حيث لم يهدأ هذا الصراع قط.

ومن خلال الاستجابة والتفاعل بين مبادئ وقيم الإسلام ونظمه السياسة والاقتصادية والاجتماعية وهديه في شتي المجالات وبين جماهير المسلمين الذين أسلموا، وغير المسلمين الذين دخلوا في الثقافة الإسلامية نشأت حضارة ذات سمات خاصة ومتميزة شغلت مساحة تاريخية وجغرافية هائلة، وخاضت تلك الحضارة المعارك على كل مستوى، دفاعا عن قيمها أو نشرا لها أو أداء لدورها الأخلاقي في الدفاع عن المظلومين والمضطهدين والمستضعفين.

وعلى مر التاريخ تعرض المنحنى الحضاري الإسلامي للعديد من حالات الصعود والهبوط إلا أنه لم يصل قط إلى حالة الانهيار، ونحن الآن في حالة هبوط حضاري، ونتعرض لضغط هائل من الحضارة الغربية، بهدف القضاء

على تميزنا الحضاري واستلابنا، وتحويلنا إلى تابع حضاري ذليل للحضارة الغربية.

ولا شك أننا نحتاج لقدر هائل مـن الـوعي والإيجابيـة لتحقيق الصمود الحضاري تمهيدا لتحقيق التعادل الحضاري ثم الصعود مرة أخرى، وهذا يحتاج بالضرورة إلى معرفـة طبيعة حضارتنا وطبيعة الحضارة الغربيـة، وبعـث روح الجهاد والوحدة في صفوف أمتنا.

وبرغم حالة الضعف الحضاري التي تمر بنا، فإننا نؤمن بأن الحضارة الإسلامية ستشهد صعودا مرة أخـرى، لأنهـا مثل الشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

﴿ أَلَم تَر كَيفَ ضرب اللهُ مثَلاً كَلِمةً طَيبةً كَشَجرةٍ طَيبـةٍ أَصلُها ثَابِتٌ وفَرعها فِي السماءِ. تُؤْتِي أُكُلَها كُل حِينٍ بِـإِذْنِ ربها ويضرِب اللهُ الأَمثَالَ لِلناسِ لَعلهم يتَذَكَّرون ﴾

(سورة إبراهيم الآيتان:٢٤، ٢٥)

ونؤمن أيضا بأن الحضارة الغربية – برغم غطرسة القوة التي تعيشها – هي حضارة هشة وضعيفة من الداخل، وأنها سوف تنهار حتما لأنها مثل الشجرة الخبيثة ليس لها قرارا.

﴿ ومثَلُ كَلِمةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجرةٍ خَبِيثَةٍ اجتُثَّتْ مِن فَوق الأرض ما لَها مِن قَرارٍ ﴾.

(سورة إبراهيم الآية: ٢٦).

إن المسلم مطالب بعدم الخضوع لعملية الذوبان الحضاري بل عليه النضال ضد حضارة الغرب المستكبرة، وأن يقود العالم إلى حضارة الإسلام العادلة، لأن العالم بحاجة ماسة إلى ذلك. وإلا استمر العالم في الشقاء بل ربما انتهى إلى كارثة بسبب سيادة الحضارة الغربية.

يقول المفكر الإسلامي محمد إقبال:

"إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث سار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته؛ لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقيني، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والإتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه ومقام الآمر الناهي. وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه ويناضله، ويظل في

صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره، إن الخضـوع والاستكانة للأحوال القاصرة والأوضاع القاهرة، والاعتـذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد".

ويقول المفكر الشهيد سيد قطب: "رسـالة الإسـلام هـي الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر، وجائزته هي الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جـور الأديان إلى عدل الإسلام، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فقـد افتضـحت الجاهلية، وبدت سوأتها للناس، واشتد تذمر الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسـلام، لـو نهض العالم الإسلامي، واحتضن هذه الرسالة بكل إخـلاص وحماسة وعزيمة، ودان بها كرسالة وحيدة تستطيع أن تنقـذ العالم من الانهيار والانحلال".

ويرى الشهيد سيد قطب:

"أن أوربا شرقها وغربها وامتدادها في أميركا تكره الدين كله وتنفر من العقيدة في الله، ومن سيطرة العقيدة في واقـع

الحياة، وفوق ذلك تكره الإسلام بصفة خاصة وترصد له من وسائل الحرب ما لا يخطر على بال. والسبب في ذلك هـو خشية الجاهلية على كيانها وشهواتها وانحرافاتها مـن ذلـك النور الجديد".

ويدعو سيد قطب إلى الانفكاك من التبعية قائلا: "يتحـتم الانفكاك من التبعية لهذا أو ذاك والتفرد بكيان دولي إسلامي مستقل يلبي حاجة المسلمين ويخدم مصالحهم وينقذ البشـرية نفسها من الدمار".

ويرى سيد قطب أنه لا طريق مع الحضارة الغربيـة إلا المواجهة، ويعبر عن ذلك قائلا: "ولن نستطيع التغلب علـى الاستعمار إلا إذا حطمناه في مشاعرنا وحطمنا معه الأجهزة التي تسحق إيماننا بأنفسنا".

ويقول المفكر الإسلامي الدكتور مصـطفى محمـود: "إن صراع الحضارات حقيقة، وحينما تلتحم الجيوش في ساحات القتال فإنها لا تكون أفرادا تتقاتل وإنمـا تكـون حضـارات ومبادئ ومثلا وسلوكيات ومعتقدات وأفكارا تلتحم ليمتحن الله أيها قد صنع إنسانا أقوى وأفضل وأكثر علما وأعمق إيمانا".

ويضيف: "حينما حارب المسلمون في بدر وأحد والخندق وتبوك والقادسية واليرموك، فإنهم لم يكونوا مجرد فرسـان يستعرضون شجاعتهم، وإنما كانوا حملـة رسـالة وممثلـي حضارة جديدة، وكانوا يحملون إلى الناس مبادئ التوحيـد، وحقوق الإنسان، وقدسية العلـم ومشـعل الحريـة، وحكـم الشورى ومكارم الأخلاق".

ويرى الدكتور مصطفى محمود أن الحضـارة الغربيـة تسير نحو نهايتها المحتومة قائلا:

"وكعادة كل حضارة مترفة تزدهر فيها فنـون الانحـلال وغرور القوة الذي يورث التمرد على كل شيء، حتى علـى الله وقوانينه وسننه، فإن مآلها الموت الـذي سـيأتيها مـن الداخل، من داخل البدن الذي تهرأ وأصبح خواء من فـرط التلذذ، ولا أعرف كيف ومتى يأتي هذا الموت، ربما بعد ظلم عميم وإسراف وخيم وغفلة مردية، وربما يرى تلك النهايـة من يطول عمره منا، وربما يراها أولاده أو أحفاده".

أما المفكر الإسلامي الأستاذ منير شفيق فيقول:

"إن الحضارة الغربية تحمل في داخلها الكثير مـن نقـاط الضعف التي ينبغي الصمود أمامها واستثمار هـذه النقـاط

الضعيفة فيها، أو الصمود وانتظار أن تؤدي تلـك المواقـع الضعيفة في جسد الحضارة الغربية إلـى انفجـار داخلـي، فالإنسان في الحضارة الأوروبية مثلا يفتقـد التـوازن بـين حاجاته المختلفة ويفتقد التوازن في علاقاته مـع الجماعـة، وهذا يؤدي إلى انتشـار الأمـراض النفسـية، والجريمـة، والانحراف، والشذوذ الجنسي، وزيـادة اسـتهلاك الخمـور والمخدرات إلى حدود أصبحت تهدد حياة مئات الملايين من السكان في أوروبا وأميركا، وهو ما يمكن أن يـؤدي علـى المدى المتوسط أو الطويل إلى انهيار الحضارة الغربية مـن داخلها، أضف إلى ذلك أن الرغبة في تحقيق أقصى قدر من النهب وبالتالي عدم التورع عن استعمال أقصى قـدر مـن العنف، ومع تزايد قوة الأسلحة الفتاكة يجعل العجلة العسكرية تدور بلا توقف مما يجعلها في النهاية قابلة للانفجـار مـن داخلها، أو بالتصادم مع بعضها البعض، وإذا كانت الحـرب العالمية الثانية التي نشأت بسبب التنافس على الربح بين دول كلها تنتمي إلى الحضارة الغربية قد أدت إلى قتل ٦٢ مليون إنسان معظمهم من الأوروبيين فكم يا ترى سوف يقتل فـي المعركة القادمة؟ إذا ما احتدمت هذه المعركة بنفس السـبب

السابق بين نفس الدول السـابقة، مـع العلـم أن القـدرات التدميرية لتلك الدول أصبحت هائلة بالمقارنة إلـى مثيلتهـا أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الرغبة في الربح بدون وازع أخلاقي، وبدون مراعاة للتوازن البيئي يمكن أن تؤدي إلى كارثة تهدد كوكب الأرض بأكمله".

ويلخص الأستاذ منير شفيق في كتابه "الإسلام في معركة الحضارة" نقاط الضعف في الحضارة الغربية كالتالي:

- التطور العام غير المتوازن بالنسـبة إلـى مختلـف المجالات، فقد تكثف في المجالات الماديـة واختـل على مستوى العلاقات الإنسانية والأخلاقية مما يؤدي في النهاية إلى الإسراع بسقوطها. لأن حالها يصـبح كحال من يقف على قدم واحدة، فمهما بلغت قدمه من القوة إلا أنها ضعيفة حين يتعرض الجسد كله إلـى هزة قوية.
- اتساع الهوة بين تلك الحضارة والغالبية العظمى من شعوب العالم، مما دفع بها إلى مواجهة قوى لا قبـل لها بمواجهتها، فالأقلية الظالمة مهما قويت وتمكنـت تظل ضعيفة أمام قوى الأغلبية المظلومـة صـاحبة

الحق. فالتضاد مع حقوق أغلبية الشعوب ومصالحها يؤدي إلى انهيار تلك الحضارة مهما طال الزمن.

- التآكل الداخلي الذي يشكل سـمة أساسـية مميـزة لمجتمعات الحضارة الغربية، سواء أكان ذلك علـى مستوى المجتمع منفردا – داخل النسق الواحد بـين طبقاته ومستوياته المختلفة – أم على مستوى صراع تلك المجتمعات فيما بينها، إن الصراع على امـتلاك القوة والسيطرة والتنازع لامتلاك الثروة يستحضـر عملية التآكل الداخلي.

- إن إطلاق الغرائز والنزعـات البهيميـة، وانتشـار الفساد والانحلال قد يحدث في تلك الحضارة ضـعفا داخليا شديدا يجعلها غير قادة حتى على الإفادة مـن قوتها المادية، مما قد يكرر صورة الجندي الروماني الذي ربط بالسلاسل لكي لا يفر في المعركة "معركة اليرموك" على الرغم من الكثرة العددية للرومان في تلك المعركة، وقوة دروعهم وطول رماحهم، ومضاء سيوفهم وقوة خيولهم.

الفصل الأول

عودة.. لحروب صليبية جديدة

لأسباب كثيرة جدا منها ما هو عقائدي وما هو تـاريخي وما هو سياسي واقتصادي؛ فإن التنـاقض بـين الحضـارة الإسلامية والحضارة الغربية هو تنـاقض جـوهري كـان وما يزال وسيستمر يشكل أبعاد الوجود الإنساني في كوكـب الأرض، وإن ظهرت بعض التناقضات الثانوية لتأخذ مساحة في الزمان والمكان مثل التناقض بين الشيوعية والرأسـمالية مثلا، فسرعان ما تتلاشى هذه التناقضـات الثانويـة أمـام التناقض الجوهري؛ فالغرب كل الغـرب وثنـي صـليبي: الرأسمالي منه والشيوعي والنازي والاشـتراكي والفاشـي والليبرالي. والإسلام والمسلمون هما العدو الرئيسي للغـرب بكل إفرازاته الأيديولوجية والمذهبية.

فالرئيس السوفيتي السابق ميخائيل جورباتشوف، عنـدما أراد أن يقدم أوراق اعتماده إلى أوربا وأميركا تكلـم عـن وحدة المصير المسيحي والحضارة المسيحية، وهي حضارة

وثنية ذات قشرة مسيحية وهي إغريقية في جوهرها، وليس فيها شيء من المسيحية الحقة، ولا حتى المسيحية المزيفة اللهم إلا القشور.

والرئيس الأميركي السابق جورج بوش، في إطار حملته الانتخابية لعام ١٩٩٢ قال باللفظ الواحد: "إنني هنا أمثل أميركا التي تمثل بدورها الحضارة اليهودية المسيحية التي تقود عالم اليوم بلا منافس"[١].

ونائب الرئيس الأميركي السابق دان كويل يقول: "إن أخطر ثلاث حركات في القرن العشرين هي النازية والشيوعية والحركة الإسلامية"[٢].

وإذا كانت النازية والشيوعية قد انهزمتا فلم يبق أمام السيد دان كويل إلا تصفية الحركة الإسلامية!

وقد نشر "عاموس بيرلماتر" الكاتب الصحفي الأميركي في صحيفة الواشنطن بوست يقول: "إنه لا يمكن حدوث مصالحة بين العالم المتمدن والإسلام؛ لأنه دين ثوري

---

[١] الأهرام: ٥/ ٩/ ١٩٩٢

[٢] الأهرام: ١٠/ ٩/ ١٩٩٢

وعدواني وعنيف ومتشـدد، مثـل البولشـفية والفاشسـتية والنازية"[١].

أما بيتر رومان الكاتب الأميركي بمجلـة "ذي ناشـيونال ريفيو" فيقول: "إنه بنهاية الحرب الباردة فقد انتصر الغـرب، ولكن الآن نحن أمام تحد من قوى إسلامية تقودها الكراهيـة للأفكار السياسية الغربية بما يعيد إلى الأذهان الظلـم الـذي تعرضت له المسيحية في زمن سابق"[٢].

ويواصل رومان حديثه قائلا: "نحن لا نظلم الإسلام عندما نعتبره عدونا الجديد الذي يحـل محـل شـيوعية الاتحـاد السوفيتي، ولا يمكن الحكم على الإسلام بالمقاييس التقليديـة للسياسة الخارجية"[٣].

---

[١] الأهرام: ١٠/ ٩/ ١٩٩٢

[٢] هذه بالطبع مغالطة فالمسيحية لم تتعرض للاضطهاد على يد المسلمين بل العكس هو الصحيح.

[٣] بل تظلمونه ولا تفهمونه يا سيد رولان.

أما ريتشارد شيفتر مساعد وزير الخارجيـة الأميركـي السابق فيقول: "إن الإسلام يمثل تهديـدا كبيـرا للاسـتقرار العالمي"[1].

أما إسحاق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، فإنه يظهر عداءه للإسلام والمسلمين بالطريقة اليهوديـة فيقـول: "بعد ذهاب الاتحاد السوفيتي فإن الأسس الجديـدة للعلاقـات الأميركية الإسرائيلية أهمها معارضة الصحوة الإسلامية"[2].

أما زعماء الصرب فأكثر وضـوحا، فـوزير الإعـلام الصربي يعلن: "إن القوات الصربية التي تـذبح المسـلمين وتبيدهم – تؤدي دور فرسان الصليب الذين ذهبوا لتخلـيص بيت المقدس من أيدي المسلمين إبان الحروب الصليبية"[3].

---

(1) الأهرام: ١٠/ ٩/ ١٩٩٢.

(2) قد يقول البعض: إن العداء للإسلام في الغرب يرجع للنفوذ اليهودي السياسي والإعلامي في الغرب، ولكن هذه حقيقة جزئية، لأنه لو لم تكن الأرضية الثقافية الغربية معادية للإسلام لما أمكن اليهود من إحداث هذا الأمر.

(3) الشرق الأوسط: ٧/ ٩/ ١٩٩٢.

وزعيم الصرب في كوسوفو يقول: "الصرب حاربوا هنـا لإنقاذ أوروبا من الإسلام، ومازلنا نحارب لمنع الإسلام مـن الانتشار في قلب أوروبا"[1].

وتحت عنوان – الإسلام السياسي والغرب إشكالية صناعة العدو في النظامين الدولي والإقليمي الجديدين – كتبت جريدة الأهرام القاهرية تقول: "ولكن المرشح ليكون عـدو النظـام الدولي والغرب هو الإسلام السياسي والأيديولوجيات الثورية الراديكالية وجماعاته في الشرق الأوسط أو الإسلام الآسيوي في باكستان وأفغانستان"[2].

وبالطبع فإن الأهرام تخجل من ذكر الحقيقة عارية وهـي عداء الغرب للإسلام واعتبار الإسلام هو العدو في النظـام العالمي الجديد، وإلا كان على الأهرام وحكومتهـا أن تتخـذ موقفا، ولذا غلفت الحقيقة بكلمات من أمثال: الإسلام السياسي أو الأيديولوجيات الثورية الراديكالية أو الإسـلام الأسـيوي أو غيرها من الكلمات.

---

(1) الأخبار: ٧/ ٩/ ١٩٩٢

(2) جريدة الأهرام: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية عدد ١/ ١١/ ١٩٩١.

والرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون يقـول: "إن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة، وإنـه مـع التزايد السكاني والإمكانيات المتاحة سوف يشكل المسـلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي، ومما يـرجح هـذا الأمر أن الإسلام والغرب متضادان، وعلى الغرب أن يتحـد ليواجه الخطر الإسلامي الداهم"[١].

وفي تعليق لمجلة المصور القاهرية - والتـي لا يمكـن اتهامها بالتطرف الإسلامي - قالت في مقالها الافتتاحي تعليقا على كتاب نيكسون: " صورة المسلم في العقل الأميركي كما يقدمها نيكسون تقول: "إنه غير متحضر ودموي""[٢].

وتضيف نفس المجلة: "في الفصل الخامس من كتاب ريتشارد نيكسون وعنوانه: "العالم الإسلامي" فكرة تنطلق من أنه بعد سقوط الشيوعية فإن المسلمين في العالم هم العدو الجديد"[٣].

---

(١) ريتشارد نيكسون - الفرصة السانحة - ترجمة أحمد صدقي مراد - دار الهلال - القاهرة - ١٩٩٢.

(٢) مجلة المصور عدد ٢٢/ ٤/ ١٩٩٢

(٣) نفس المصدر السابق.

وتضيف أيضا: "إن الغرب يرى أن المتعامل مع العـالم الإسلامي يشبه وضعه وضع الشخص الذي يعيش في حفرة ضيقة، ومعه مجموعة من الثعابين السامة"[(١)].

وأصبح هذا المضمون سلسلة مترامية الأطراف في أيدي قادة الغرب في أوربا وأميركا. والمتتبع لتاريخ الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، يجـد أن تشـويهات الغرب للإسلام والحضارة الإسلامية مستمرة منـذ ظهـور الإسلام، وعلى وتيرة واحدة، فهي صورة ثابتة لـم تتغيـر، وتكمن التغيرات فقط فـي الوسـائل لتوصـيل المضـمون والصورة، سـواء وسـائل بشـرية (قـادة – إعلاميـين – مستشرقين)، أو مادية.

والسيدة الحديدية "مارجريت تاتشر" تقول: "يجب المحافظة على حلف الأطلنطي لمواجهة الخطر الإسلامي"[(٢)].

وكرر نفس المضمون عدد كبير من قادة الغرب، فها هو وزير خارجية إيطاليا يقول: "ما تزال مهمة حلف الأطلنطـي

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) د. محمد مورو – الإسلام وأميركا حوار أم مواجهة – دار الروضة – القاهرة – ١٩٩٢.

قائمة بل ضرورية، فإذا كان الخطر الشيوعي قد انتهى، وإذا كان حلف وارسو قد ذهب فإن الخطر الإسلامي بـاق ولـم يذهب"[1].

والمعلق الروسي الشهير فاسيليف يقول: "إن أميركا الآن تنظر إلى العالم الإسـلامي بوصـفه إمبراطوريـة الشـر الجديدة"[2].

أما البابا يوحنا بولس الثاني – بابا الفاتيكان – فقد اعتبـر انهيار الشيوعية فرصة مناسبة للبدء في تنصـير المسـلمين والقضاء على الإسلام. فحمل عصاه وجاء إلى أفريقيا وآسيا لإقامة الصلوات، والتبشير في بلاد لا يسكنها مسيحي واحد، وكان البابا يوحنا بولس الثاني قد أرسل منشورا إلى جميـع القساوسة الكاثوليك يأمرهم فيه بانتهاز الفرصة التي سـنحت

---

(1) صحيفة النيوزويك، نقلا عن د. عبد الودود شلبي – عرب ومسلمون للبيع – المختار الإسلامي – القاهرة – ١٩٩٢.

(2) نقلا عن د. محمد مورو – الإسلام وأميركا – مرجع سابق.

لسيطرة الغرب وأميركا على العالم، ونشر المسيحية في كل بقاع العالم، وخاصة البلاد الإسلامية"[1].

ولم تستهدف الحركة التبشيرية أبدا تنصير المسلم، ولكن تسعى هذه العملية التبشرية لإخراج المسلمين من دينهم وتركهم بدون ملة أو هوية دينية، لاعتبار أن الدخول في المسيحية هو شرف لكل مسلم لا يستحقه!

والموجة العنصرية الصليبية التي تتصاعد في أوروبا وأميركا لا تخص كبار القادة وحدهم، ولا تخص اتجاهات سياسية معينة بل هي موجة للجميع، كتعبير عن وجدان صليبي متغلغل في الغرب، وعلى سبيل المثال فإن مجلة "دير شبيجل" الألمانية [2] واسعة الانتشار حملت على صدر غلافها الصادر في ٣٠ سبتمبر عام ١٩٩١ عنوانا واحدا ضخما يلخص الموجة العنصرية التي تجتاح ألمانيا ضد العرب والمسلمين. يتكون هذا العنوان من كلمة واحدة فقط هي "الكراهية" (HASS).

---

[1] نشر البابا هذا المنشور في جريدة "النيوزويك تايمز" الأميركية في عدد ٢٣، ١/ ١٩٩١ .

[2] عدد ٣٠ سبتمبر ١٩٩١.

وقدمت الصحيفة بعض الأعمال العنصرية التي يقوم بهـا الألمان ضد المسلمين، وفي هذا الإطار يمكننا أن نسجل مثلا أن نشرات الأخبار في شهر أغسطس عام ١٩٩٢ قد حفلـت بأنباء المظاهرات الألمانية ضد العرب والمسلمين المهاجرين في ألمانيا، وقيام المتظاهرين بإحراق أو إلقاء الحجارة علـى معسكرات المهاجرين أو الفنادق التي يقيمون بها.

ومن ناحية أخرى – فإن المتاعب التي واجههـا السـفير الألماني في المغرب بسبب تحوله إلى الإسلام تكشـف عـن روح عنصرية حادة في الوجدان الألماني.

وقد نقلت وكالة رويتر عن أحد أعضاء البرلمان في ولاية بادن فورتمبرج الألمانية قوله: "على المساجد أن ترحل مـن ألمانيا"[١]. ونقلت الوكالة ذاتها عـن عضـو فـي برلمـان شتوتجارت الألمانية قوله: "إن الكيل قـد فـاض بالنـاخبين الألمان بسبب مسجد يجري بناؤه على أطراف المدينة مـن أجل العمال الأتراك"[٢].

---

[١] جريدة الشرق الأوسط عدد ١٢/ ٤/ ١٩٩٢

[٢] نفس المصدر السابق.

أما في فرنسا فالموجة العنصرية ضد العرب والمسلمين تشتد يوما بعد يوم، بل إن التصريحات المعادية للإسلام والمسلمين أصبحت الطريق السهل أمام الساسة الفرنسيين الذين يريدون العودة إلى الأضواء من خلال العزف على وتر يمس الوجدان الفرنسي، ألا وهو وتر العنصرية ضد الإسلام، "فجاك شيراك" زعيم الحزب الديجولي يصف العرب والمسلمين: "بالوساخة والرائحة النتنة وافتعال الضجيج المتواصل"[١] والرئيس الفرنسي الأسبق "جيسكار ديستان" شن بدوره هجوما ضاريا على الجزائريين والأتراك والمسلمين عموما، وطالب بطردهم، بل طالب بسحب الجنسية الفرنسية من الجزائريين الذين حصلوا عليها[٢].

أي أن العداء العقائدي للإسلام في فرنسا لم يعد قاصرا على جان ماري لوبن زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية، بل امتد فطال كافة الاتجاهات السياسية، ويلاحظ في هذا الصدد أن جان ماري لوبن يكسب كل يوم أنصارا جددا مما يعكس تزايد الوجدان العنصري الصليبي في فرنسا.

---

[١] د. محمد مورو - الإسلام وأميركا – مرجع سابق

[٢] نفس المرجع السابق

والفرنسيون في هذا الصدد لا يتورعون عـن اسـتخدام المصطلحات الدينية المباشرة بلا خجل، فرئيس مكتب الهجرة الدولية بفرنسا "جاك مكود بارو" يقول في مقابلة صحفية: "إن الديانة الإسلامية هي الأكثر انغلاقا وتشددا، ويشترط علـى المهاجرين المسلمين إلى فرنسا أن يتخلوا عن الإسلام كشرط لاستيعابهم في المجتمع الفرنسي"، ويضيف: "إن فرنسيا مـن أصل توجولي استطاع الوصول إلى مركز وزير دولة لأنـه تنصر وأصبح يذهب باستمرار إلى الكنيسة"[١].

وشاركت الجرائد والمجلات الفرنسية بدور كبير في شن الحرب الدعائية المعادية، ضد العرب والمسلمين، وأبـدعت قصصا ونوادر للعرب المقيمين في الأحياء الفرنسـية، بمـا يوافق الميول والاتجاهات العدائية لدي الجمهـور الفرنسـي تجاه العرب، حتى أصبحت هذه الجرائد أكثر شعبية وأكثـر توزيعا.. وكذلك انتهجت محطات الإذاعـة الفرنسـية هـذا النهج، وسمحت لنفسها "بدبلجـة" قصـص لأبطـال عـرب ومسلمين، يعترفون فيها بمغامراتهم الجنسية ولياليهم الدموية وشذوذهم الأخلاقي.

---

(١) نفس المرجع السابق.

وفي بلجيكا أصبحت السجون مكتظة بالمهاجرين العـرب والمسلمين الذين ألقي القبض عليهم في حملات مكثفة قامـت بها الشرطة البلجيكية مما أدى إلى تظاهر هؤلاء واشـتباكهم مع الشرطة، ومن المعروف أن بلجيكا مـن أكثـر الـدول اضطهادا للمسلمين، ونذكر أنه خلال النصف الأول من عام ١٩٩١ كانت بلجيكا قد طردت خمسة آلاف شخص مسلم.

وفي بريطانيا شهد عام ١٩٩١ موجة من العنف الـدامي ضد المسلمين. خصوصا في المدن التـي تشـهد تجمعـات إسلامية كبيرة، مثل مانشستر وليفربـول وبرمنجهـام، فقـد ألقيت ثلاث قنابل على المساجد في تلك المدن، وأحرق مسجد رابع في بلدة "ووكينج" غربي لندن. بالطبع لم تشـذ أميركـا عن هذه القاعدة، فتصاعدت خلال نفس العام أيضـا أعمـال العنف الجسدي والنفسي ضد العرب والمسلمين، بل إن فروع مكتب التحقيق الفيدرالي قد استدعت عشرات الألـوف مـن الشبان العرب والمسلمين، وكان أغرب تصريح فـي هـذا الصدد قد جاء على لسان ويليام شستر رئيس مكتب التحقيق الفيدرالي قال فيه: "إن مـن هـؤلاء المسـلمين إرهـابيين محتملين" وقد علق محام أميركي من أصل آسيوي على ذلك

التصريح بمرارة قائلا: "إنني لم أسمع في حياتي، ولم أقـرأ في كتب القانون عن مشروع مجرم أو مشروع إرهابي"[١].

وفي الانتخابات الأوروبية التي أجريت أوائل عام ١٩٩٢، ارتفعت النبرة العنصرية وزاد عدد مؤيديها المباشرين، فقـد زادت الأصوات الممنوحة لليمين المتطرف في كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وقد علق الأستاذ سلامة أحمد سـلامة فـي مقال له بالأهرام على ذلك قائلا: "في أوروبا يزحف اليمـين المتطرف الآن نحو المقدمة، وهذا إيذان بازدياد العداء تجـاه العالم الثالث، ونمو روح الكراهية والاستعلاء والأنانية تجاه الأجانب، ويهدد الجاليات الإسلامية في أوروبا"[٢].

والأستاذ سلامة أحمد سلامة – وهـو لا يمكـن اتهامـه بالتطرف الإسلامي مثلا – ليس وحده الذي رصد ذلك، بـل إن مفكرين علمانيين معروفين بعدائهم للاتجاه الإسلامي، لـم يجدوا بدا من الاعتراف بهذه الحقيقة، فالأستاذ محمد حسنين هيكل مثلا صرح مندهشا لصحيفة الإندبنـدنت البريطانيـة

---

[١] نفس المرجع السابق.

[٢] الأهرام: ١٢/ ٤/ ١٩٩٢.

قائلا: "إنه يندهش من روح العداء الصليبي التي تنتشر فـي الغرب الآن"[1].

والأستاذ لطفي الخولي قال: "إن روحا صليبية واضـحة تحرك السلوك الغربي تجاه العرب"[2].

والأستاذ محمد سيد أحمـد – وهـو شـيوعي مصـري معروف – قال نفس الشيء في أكثر مـن مقـال بجريـدتي الأهالي والأهرام.

ولأن الأمر أصبح من الاستفزاز والوضوح فإنه لم يلفـت نظر الكتاب السياسيين فقط، بل لفت نظر الشعراء أيضا، فها هو الشاعر الكبير فاروق جويدة يقول: "مواقف الغـرب الآن تعيد إلى أذهاننا الوجه القبيح للغرب حين امـتهن مقدسـاتنا وأوطاننا واستباح خيرات بلادنا واعتبرنا شعوبا من الدرجـة العاشرة"، ويتساءل الأستاذ فاروق جويدة قائلا: "هـل هـي

---

(1) نشرت جريدة مصر الفتاة ترجمة لهذا التصريح في عدد ١٦/ ٣/ ١٩٩٢ وكذا صحيفة الشعب في عدد ١٧/ ٣/ ١٩٩٢.

(2) الأهرام عدد ١٥/ ٣/ ١٩٩٢ صفحة الحوار القومي.

عودة لدق طبول الحروب الصليبية الملعونة؟"[1].

***

ما رصدناه فيما سبق من موجة عنصرية صليبية عارمة في أوروبا وأميركا يختص على وجه التحديد بعامي ١٩٩١، ١٩٩٢، وهما العامان اللذان تليا عملية انهيار الشيوعية وانفراد أميركا بقيادة العالم، فهل يرجع الأمر إلى أن الغرب بدأ يبحث عن عدو بديل للشيوعية مثلا. فرجع إلى عدائه للإسلام؟ أم أن الأمر أعمق من هذا التفسير السطحي؟ خاصة بعد أن أصبحت أميركا تكيل بمكيالين لقياس الأمور.

وفي الحقيقة فإن المنطلق العلمي والموضوعي يقول: إن انهيار الشيوعية لا يؤدي بالضرورة إلى العداء للإسلام، وإن بحث الغرب عن عدو بديل للشيوعية – ربما لأنه يحتاج إلى عدو دائما! لا يمكن أن يكون مبررا لاختيار الإسلام بالذات ليكون هو العدو الجديد، ما لم يكن هناك استعداد ذاتي في الوجدان الغربي لتقبل هذه الفكرة؛ أي ما لم يكن العداء

---

(١) الأهرام عدد ٢٦/ ٤/ ١٩٩٢ مقال تحت عنوان "الغرب وعودة الوجه القبيح".

للإسلام أصلا موجودا وعميقا في الوجدان الغربي قبل الشيوعية ذاتها صعودا وانهيارا.

وعلينا أن ندرك بداية أن الشيوعية ما هي إلا أحد أوجه الحضارة الغربية أو هي إحدى إفرازات الأرضية الثقافية للحضارة الغربية التي أفرزت: الرأسمالية والنازية والفاشية والاشتراكية الديمقراطية وغيرها. والتناقض الذي كان قائما بين الدول الرأسمالية وبين الشيوعية لم يكن إلا تناقضا بين طرفين خرجا من حضارة واحدة "الحضارة الغربية"، ويحملان السمات الأساسية لتلك الحضارة، وهذا الأمر معروف، بل ويعترف به مفكرو الغرب أنفسهم حتى قبل انهيار الشيوعية، يقول المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي":

"إن المنافسة بين الاتحاد السوفيتي وبين الولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين المذهب الحر والشيوعية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي"[1].

وقبل ظهور الشيوعية، وأثناء صعودها، وبعد انهيارها كان وما يزال التناقض الرئيسي في هذا العالم هو التناقض

---

[1] أرنولد توينبي – تاريخ الحضارات.

بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الذي أدى بدوره إلى صراع استمر في الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا وشغل مساحة كبيرة من تاريخ الصراع في هذا العالم منـذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، وإن كل القـوى الغربيـة بـلا استثناء، وكل إفرازات الحضارة الغربية بلا استثناء، وكـل دول الغرب تدخل في الطرف المعادي للحضارة الإسلامية.

وصحيح أنه يمكن أن يحدث تناقض بين بعـض الـدول الغربية أو بعض المذاهب السياسية الغربية أو بين الشيوعية والرأسمالية مثلا أو المعسكر السوفيتي والمعسكر الأوروبي الأمريكي، إلا أن ذلك يظل في إطار التناقضات الثانوية، بل ويمكن لهذه التناقضات الثانوية أن تقفز في بعض اللحظـات لتأخذ مكانا كبيرا في التاريخ، إلا أنها تظل رغم حدتها تحمل سمات التناقضات الثانوية التي سرعان ما تذوب وتتلاشـى أمام التناقض الجوهري.

فبرغم حدة الصراع الثانوي بين إنجلترا وفرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، نرى هذا التناقض يتلاشى مـع ظهـور الثورة العرابية في مصر، فنجد فرنسا تضحي بمصالحها في مصر، وتسلم الكعكة كلها لإنجلترا خوفا من خطـر الثـورة

العرابية على المشروع الاستعماري الغربي برمته[1]، ونرى التناقض بين أميركا والاتحاد السوفيتي يتلاشى فـي قضـية فلسطين، ونحن نعلم أن الدولتين اعترفتا بإسرائيل فور قيامها سنة ١٩٤٨[2].

إذا فالتناقض الغربي مع الإسلام تناقض جوهري امتد في الزمان والمكان منذ ظهور الإسلام وحتى اليـوم أيـا كـان النظام السياسي الغربي الكائن، سواء كانت أوروبا تحت حكم الإقطاع والكنيسة أو الرأسمالية أو مع ظهور المذاهب الفاشية والنازية والشيوعية.

والسلوك الغربي تجاه المسلمين هو نفـس سـلوك البابـا أربان الثاني – مفجر الحروب الصليبية – الذي وقف خطيبا عام ١٠٩٥ م في مجمع كليرمونت الكنسي بفرنسـا قـائلا: "أيها الجنود المسيحيون.. اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من

(١) د. محمد مورو – صفحات من كفاح شعب مسلم – الجزء الثالث "الثورة العرابية الإسلامية" – الزهراء للإعلام العربي – القاهرة ١٩٩٢.

(٢) د. محمد مورو – التحدي الاستعماري الصهيوني وجهة نظر إسلامية – دار الفتى المسلم – القاهرة ١٩٨٦.

أيدي الكفار المسلمين، أذهبوا واغسلوا أيديكم بـدماء أولئـك المسلمين الكفار"[1].

نعم قبل أن تظهر أو تنتشر الشيوعية بزمان بعيـد، كـان الإسلام دائما وأبدا هو العدو. فالكاردينال لافيجوري يحـدد أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائـر قـائلا: "علينـا أن نخلص هذا الشعب، وأن نحرره من القرآن، وعلينا أن ننشئ أطفالهم على مبادئ غير التي نشأ عليها أجدادهم، إن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو إبادتهم"[2].

ويقول الجنرال كليمونت تونير وزير الحربيـة الفرنسـية عام ١٨٣٠ أي عام احـتلال الجزائـر: "إن الحملـة علـى الجزائر هي حرب صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله للثأر من أعداء المسيحية"[3].

والجنرال بيجو – القائد العسكري الفرنسي في الجزائر – كان يعمل على جمع الأطفال الجزائريين وتسليمهم للقسـيس

---

[1] د. سعيد عبد الفتاح عاشور – الحروب الصليبية – مكتبة الأنجلو المصرية.

[2] بسام العسيلي – جهاد شعب الجزائر – دار النفائس – بيروت.

[3] نفس المصدر السابق.

الأب "بريمون" قائلا: "حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين"[١].

ويقول الجنرال بيجو أيضا: "إن أيام الإسلام الأخيرة في الجزائر قد ماتت ولن يكون في الجزائر كلها بعد عشرين عاما من إله يعبد سوى المسيح"[٢].

وفي الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر قال خطباء الفرنسيين: "إن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام فيها"[٣].

وفي نفس الاحتفال وقف أحد المستوطنين الفرنسيين في الجزائر يقول: "إن عهد الهلال قد ولى وإن عهد الصليب قد بدأ وإنه سيستمر إلى الأبد"[٤].

وكتبت جريدة فرنسية سنة ١٩٢٦ تقول: "لقد استسلم

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) أبو الصفصاف عبد الكريم – جمعية العلماء المسلمين في الجزائر ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية – دار الهدى – الجزار – ١٩٨٧.

(٤) نفس المصدر السابق.

عبد الكريم الخطابي من غير شرط وخضع لحماية فرنسـا، ذلك ما كنا نبغي فالحادث مهم، فهو يضرب الإسـلام فـي الصميم وبوسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع"[١].

وحين دخل الجنرال اللنبي القدس يوم ٩ ديسـمبر عـام ١٩١٧ قـال قولتـه المشـهورة: "الآن انتهـت الحـروب الصليبية"[٢].

وحين دخل الجنرال جورو دمشق يوم ٢١ يونيـو ١٩٢٠ توجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقـف أمامـه قـائلا: "ها قد عدنا يا صلاح الدين"[٣].

وما قاله اللنبي أو جورو ما هو إلا تعبير عـن الموقـف السياسي والثقافي الأوروبي في ذلك الوقت، فنشرت الصحف البريطانية صور اللنبي وكتبت تحتها العبارة التي قالها، وهنأ لويد جورج وزير الخارجية البريطانية فـي ذلـك الوقـت الجنرال اللنبي في البرلمان البريطاني لإحرازه النصر فـي

---

(١) La Depeche de Constantine ٢٨ – ٥ - ١٩٢٦

(٢) د. عبد العزيز الشناوي – الخلافة العثمانية – مكتبة الأنجلو المصرية.

(٣) نفس المصدر السابق.

آخر حملة صليبية من الحروب الصليبية التي سماها لويد جورج الحملة الصليبية الثامنة[(١)].

والجندي الإيطالي الذي كان يذهب إلى ليبيا لاحتلالها كان ينشد لأمه: "أماه.. أتمي صلاتك.. لا تبكي.. بل اضحكي وتأملي.. أنا ذاهب إلى طرابلس.. فرحا مسرورا.. سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة.. سأحارب الديانة الإسلامية.. سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن"[(٢)].

ويقول لورانس براون: "إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي"[(٣)].

[(١)] د. وليم سليمان – مقال في مجلة الطليعة القاهرية – عدد ديسمبر عام ١٩٦٦. ولعل استدلال د/ وليم سليمان بها دليل على مدى استفزازها، وكذلك نشرها في مجلة الطليعة اليسارية، أي أن التعصب الصليبي الأوروبي لا ينكره حتى المسيحي المصري، ولا يستطيع حتى أن يبتلعه ذوو الميول اليسارية.

[(٢)] محمد جلال كشك – القومية والغزو الفكري.

[(٣)] د. عمر فروخ، ومصطفى الخالدي – التبشير والاستعمار.

ويقول رئيس الوزراء البريطاني الأسبق: "مـا دام هـذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلـن تسـتطيع أوروبـا السيطرة على الشرق"[1].

ويقول المستشرق جاردنر: "إن القوة التـي تكمـن فـي الإسلام هي التي تخيف أوربا"[2].

ويقول "أنطوني ناتنج": "على العالم الغربـي أن يحسـب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط"[3].

ويقول مسئول في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢:

"ليست الشيوعية خطرا على أوروبا فيما يبـدو لـي، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدا مباشرا وعنيفا هو الخطر الإسلامي"[4].

ويقول فيليب فونداس:

---

(١) محمد أسد – الإسلام على مفترق الطرق.

(٢) د. عمر فروخ، ومصطفى الخالدي – التبشير والاستعمار.

(٣) وليم بولك – الولايات المتحدة والعالم العربي.

(٤) سعيد حوي – جند الله ثقافة وأخلاقا.

"إن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام، وأن تحاول علـى الأقـل إيقاف انتشاره"[1].

ويقول كيمون المستشرق الفرنسي:

"من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم علـى البـاقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر"[2].

ويقول أيوجين روستو رئيس قسم التخطيط في الـوزارة الأميركية ومساعد وزير الخارجيـة الأميركيـة ومستشـار الرئيس جونسون لشئون الشرق الأوسط حتى عـام ١٩٦٧: "يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننـا وبـين الشـعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب بل هي خلافـات بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية"[3].

---

(١) فيليب فونداس – الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء.

(٢) د. محمد البهي – الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي – مكتبة وهبة القاهرة.

(٣) جلال العالم – قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله – المختار الإسلامي القاهرة.

(بل إن الصهيونية، التي تدرك مدى العـداء الأوروبـي للإسلام استخدمت شعار "قاتلوا المسلمين" لدعوة الأوروبيين للتبرع لإسرائيل)[1].

حتى أنصار الديكتاتورية والشيوعية في الغرب كان لهـم نصيب من العداء للإسلام؛ فما زال ديكتاتور البرتغال يقول:

"إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الـذي يمكـن أن يحدثه المسلمون"[2].

وجريدة الحزب الشيوعي تقول في عدد ٢٢ مايو ١٩٥٢:

"من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام نهائيا".

إذا فالعداء للإسلام أمر طال كـل إفـرازات الحضـارة الغربية، وهو وجدان أوروبي عميق قبل ظهور الشـيوعية، وبعد انهيارها، وليس أمرا طارئا علـى العقـل والوجـدان الأوروبيين.

---

(١) محمد جلال كشك – طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية.

(٢) سعيد حوي – جند الله ثقافة وأخلاقا.

الفصل الثاني

تاريخي..الصراع الإسلامي الغربي

من الطبيعي أن يحدث صراع كبير وشامل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، لأنه من الطبيعـي أن يحـدث صدام بين حضارة تمثل: التوحيد والحرية والعدل والمساواة واللاعنصرية والمسئولية والأخلاقية وحضارة تمثل: الوثنية والقهر والعنف والاستبداد والظلـم والعنصـرية والمنفعـة اللاأخلاقية ونهب الشعوب والطبقات.

ومن الطبيعي أيضا أن يحـدث الصـدام لأن المسـلمين مأمورون من الله تعالى بالجهاد في سبيل تحرير الناس مـن العنف والقهر والنهب والاستبداد والظلـم والعنصـرية، أي تحرير الناس من الممارسات والقيم التي تمثلهـا الحضـارة الغربية، ولأن قادة الحضارة الغربية والمستفيدين من قمعهـا ونهبها وظلمها رأوا خطرا شديدا على مصالحهم مـن قـيم الحضارة الإسلامية التي تغري الشعوب بالثورة على هؤلاء القادة والحكام والكهان الذين يقودون مسيرة الحضارة الغربية

الظالمة. بدأ تاريخ هذا الصدام مبكرا جدا في حياة الرسـول ﷺ ففي أثناء حياة الرسول ﷺ حدثت أربع مواجهـات مـع الروم أو حلفائهم، مرة في دومة الجندل ومرة في مؤتة ومرة في موطن قبائل قضاعة ومرة في تبوك.

وفي آخر حياة الرسول ﷺ تم تجهيز جيش أسامة بن زيد للذهاب إلى الشام، ولما مرض الرسول ﷺ تعطل خروج هذا الجيش، وكان الرسول ﷺ كلما أفاق مـن وطـأة المـرض يوصى بإنفاذ جيش أسامة، وقد وفى الخليفة الصديق رضـي الله عنه ونفذ هذه الوصية، رغم ظهور مشاكل الـردة فـي الجزيرة العربية نفسها.

ولعل الاهتمام المبكر للرسول ﷺ بهذه المسـألة يعطينـا الدلالة والإشارة على إدراكه النبـوي بخطـورة الصـراع المستقبلي مع الحضارة الغربية، ولعل هذا الأمر ذاتـه هـو الذي جعل الخليفة الصديق أبو بكر – رضـي الله عنـه - يصمم على إنفاذ جيش أسامة، رغم مشاكل الردة، بل ورغم معمعة الردة أرسل أبو بكر الصديق عددا من الجيوش إلـى الشام، مثل جيش خالد بن سعيد بـن العـاص، وجـيش ذي الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل ثم جيش الوليـد بـن

عقبة، ثم أعد الخليفة أبو بكر الصديق أربعة جيوش في وقت واحد:

أولها: تحت قيادة أبو عبيدة بـن الجـراح وتوجـه إلـى حمص، والثاني: تحت قيادة عمرو بـن العـاص ووجهتـه فلسطين، والثالث: ليزيد بن أبي سفيان وتوجه إلى دمشـق، والرابع: لشرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن.

وأمام الجيوش الرومانيـة الجـرارة توحـدت الجيـوش الإسلامية الأربعة ثم انضم إليها خالد بن الوليد، بعد وصول الأوامر بالتحرك من العراق إلى الشام ووقعـت معركتـان كبيرتان هما أجنادين واليرموك سنة ٦٣٦ م وانتهت بانتصار المسلمين وخروج الروم نهائيا من الشام.

وفي عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب تم فتح مصر سنة ٦٤٠ م والإسكندرية سنة ٦٤٢ ثم فـتح ليبيـا وبرقـة وطرابلس، وفي عهد الخليفة ذي النورين عثمان بن عفان تم فتح تونس، واستمرت المعارك مع البيزنطيين فـي شـمال أفريقيا، ثم تم غزو قبرص عام ٦٤٩ م ثم الاسـتيلاء علـى جزيرة أرواد بالقرب من ساحل الشـام سـنة ٦٥٠ م، ثـم الاستيلاء على قبرص سنة ٦٥٤م ثم جزيـرة رودس سـنة

٦٥٤م، وفي عـام ٦٥٥ حـاول الإمبراطـور البيزنطـي قسطنطين استعادة السيادة على البحـر المتوسـط، فجهـز أسطولا ضخما، إلا أن الأسطولين الإسـلاميين فـي الشـام ومصر نجحـا فـي تحطـيم الأسـطول البيزنطـي وكـاد الإمبراطور نفسه أن يقع في الأسر، وهي المعركـة التـي تعرف بمعركة ذات الصواري، وتعد هذه المعركـة نقطـة حاسمة في الصراع البحري بين المسلمين والبيزنطيين.

ومع حدوث الفتنة هدأت حركة الفتوح قليلا لتعود بعـدها في عهد الدولة الأموية ثم العباسية.

وإذا عدنا إلى شمال أفريقيا نجد أن الحملات العسـكرية الإسلامية التي بدأت بعمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ حيـث فتح مصر ثم الإسكندرية، ثم جاء عبد الله بن مسعد بن أبـي السرج سنة ٢٧ هـ - ٣٥هـ، ثم رافع بن ضريج سنة ٤٥ هـ، ثم عقبة بن نافع سنة ٥٠ – ٥٥ هـ ثم أبو المهاجرين دينار سنة ٥٥ هـ - ٦٢ هـ الذي استطاع أن يضـم إليـه رجال القبائل من البربر ويسـتخدمهم فـي فتوحاتـه بعـد إسلامهم، ثم مرة أخرى عقبة بن نافع الذي استطاع أن يصل

إلى شاطئ المحيط الأطلسي ويطهر الشمال الأفريقي كله من الحكم الروماني.

وقد سجل التاريخ قولته المشهورة أمام المحيط الأطلسـي "اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لبقيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك"، وعقب ذلك قام زهير بن قيس بتوطيد دعائم الحكم الإسلامي فـي بـلاد الغرب ثم حسان بن النعمان سنة ٧٣ هـ - ٨٢ هـ.

ثم جاء موسى بن نصير فأكمل الفتح وثبت دعائمه سـنة ٨٦ هـ وقام بالهجوم على الجـزر المنتشـرة فـي البحـر الأبيض المتوسط مثل: صقلية – سردينيا – قورسيقا – جزر البليار، ثم أعد عدته وأرسل الجيش المسلم المكون من رجال القبائل البربر بقيادة المجاهد طارق بن زياد إلـى طنجـة – وهو أيضا بربري – فاجتازوا المضيق الذي تسـمى باسـم مضيق جبل طارق لهذا السبب، ووصلوا إلى إسبانيا وهزموا ملك القوط، وأسسوا الحكم الإسلامي في الأندلس الذي استمر ثمانية قرون ٧١١ م – ١٤٩٢م.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن موسى بن نصير عندما بلغت جيوشه جبال البرانس في إسبانيا طمع فـي عبورهـا

وغزو ما وراءها من بلاد أوروبا حتى القسطنطينية، ولكـن الخليفة الوليد بن عبد الملك منعه من ذلك، ولو كان قد فعـل لتغير وجه التاريخ ولانتهى التحدي الأوروبي إلى الأبد.

على كل حال استمر التقدم الإسلامي فـي أوروبـا مـن الأندلس على يد البربر المسلمين أنفسهم الذين أصبحوا خير جند الإسلام، وغزوا جنوب فرنسا، ثم تابع سـحيم الكلبـي الزحف، فوصل إلى نهر الرون وفتح مدينة ليون الفرنسـية، ثم توغل حتى بلغ مدينة أوتون في أعـالي نهـر الـرون، واستمر هذا الغزو فيما بعد على يد عبد الرحمن الغافقي الذي واصل الزحف داخل فرنسا، فاستولى على مدينة بوردو على مصب نهر الجارون، إلى أن توقف عقـب معركـة بـلاط الشهداء سنة ٧٣٢م، والتي استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي، ومع توقف المسلمين عن الغزو والزحـف حـدث هجـوم أوروبي مضاد، وحدث النزاع والشقاق بين المسلمين.

ويرجع ذلك إلى سمة هامة من سمات المجتمع المسـلم، وهي أنه إما أن يقوم هذا المجتمع بأداء رسالته في الجهـاد وتحرير الشعوب من الطواغيت والحكام الظالمين، وإمـا أن تحدث شروخ في كيان ذلك المجتمع. فالمجتمع المسلم إما أن

يجاهد وإما أن يتمزق ويتفرق ويحدث اليأس بين أهله بعضهم بعضا.

ومع توقف الزحف الإسلامي في أوروبا من خلال الأندلس، حدثت الاختلافات والصراعات بين المسلمين أنفسهم في الأندلس، وحدث هجوم أوروبي مضاد على الأندلس، ولكن الله قيض للأندلس والمغرب من يحميها فجاء المرابطون ليعيدوا توحيد الأندلس، وينزلوا الهزيمة بالإسبان في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦.

وظل أهل المغرب محافظين على الحكم الإسلامي بالأندلس بسيوفهم طوال حكم المرابطين وجزء كبير من حكم الموحدين، حيث أنزل الموحدون الهزيمة بالإسبان في معركة الأرك سنة ١١٩٥ م حتى سنة ٦١٢ هـ - ١٢١٤ م حيث يعود حكم الطوائف والأحزاب للأندلس ويعتريها التفرق والتشرذم إلى أن تسقط سنة ١٤٩٢م، واستمر بقايا المسلمين في الأندلس يقاومون بعد ذلك قرنا من الزمان وينظمون الثورات على الحكم الإسباني، إلا أن الإسبان عمدوا إلى المذابح ومحاكم التفتيش، فأبادوا المسلمين من الأندلس حتى لم يبق قبر لمسلم في الأندلس!

وبعودة إلى شمال أفريقيا، نجد أنها قبـل فـتح الأنـدلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد سقوط الأنـدلس، فـي حالة صراع مستمر مع أوروبا.

وبالتعاون بين الأندلسيين والأغالبة في تـونس تـم فـتح كريت عام ٢١٢ هـ ٨٢٦ م على يد الاندلسيين، ثم جزيرة صقلية على يد الأغالبة التونسيين ٨٢٧ م – ٩٠٨م، ثم غزوا جنوبي إيطاليا انطلاقا من صقلية، ثم فتحـوا مالطـة سـنة ٨٦٩ م، ثم دقوا أبواب روما نفسها سـنة ٨٤٦ م وعـادوا وحاصروها سنة ٨٧٠ م ولم يجد الباب يوحنا الثامن بدا من التفاوض مع المسلمين، لرفع الحصار عن رومـا مقابـل أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة. وفي ذلك الحين كان الأسطول الأندلسـي يمـارس نشاطه لفتح الجزر الغربية في البحر المتوسط وهـي جـزر البلقان، ميورقة، ومنورقة، ويابسة، وسردينيا، وكورسيكا.

ومع بداية القرن الخامس عشر وقـرب نهايـة الأنـدلس الإسلامي، تعرضت بلاد المغـرب للعديـد مـن الحمـلات الصليبية الأوربية، وتزايدت تلك الحملات وخاصة الإسبانية

والبرتغالية بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، ولولا وصـول الإمداد العثماني البحري سنة ١٥١٠ لاستمر مسلسل السقوط.

فقد قام الأسطول العثماني بقيادة عـروج وخيـر الـدين بربروس باسترداد المواني التي سقطت في أيدي الإسـبان، كما قام خير الدين بتوحيد بلاد المغرب، وإنشاء قوة بحريـة إسلامية عظيمة سيطر بها على الملاحة في البحر المتوسط، وخافته جميع دول أوروبا، وقد استمرت السيطرة البحريـة الإسلامية على غرب المتوسط فترة طويلة، حتى أنها كانـت تفرض الإتاوات على النشاط البحري الأوربي.

واستمرت مع ذلك الحملات الصـليبية علـى المغـرب العربي، وسجلت صفحات التاريخ أكثر من ١٠٠ حملة على الجزائر منها ما هو: إسباني وبرتغالي وألمـاني وإنجليـزي وإيطالي وبلجيكي وهولندي بل وأميركي أيضا حتى سـقطت الجزائر في النهاية في الاستعمار الفرنسي سـنة ١٨٣٠ ثـم تونس سنة ١٨٨١ والمغرب سنة ١٩١٢، ثم سقطت ليبيا في الاحتلال الإيطالي سنة ١٩١١، إلا أن المقاومـة الإسـلامية للاستعمار الأوروبي في المغرب العربي لم تنقطـع، فهبـت الثورات وحركات المقاومة بقيادة عبد القـادر الجزائـري –

المقراني – الحداد – ابن باديس – ثورة ١٩٥٤ في الجزائر، وعبد الكريم الخطـابي وعـلال الفاسـي فـي المغـرب، وعبد العزيز الثعالبي في تونس، وعمر المختار في ليبيا.

***

وإذا عدنا إلى المشرق نجد أن الصراع أيضا لم ينقطـع بين الإسلام وأوروبا، فبعد تحرير الشام استمرت المناورات البيزنطية في البحر المتوسط وبعض مناطق الشـام وسـجل المسلمون الانتصارات فـي أروبنيـة سـنة ٦٦١م، وقـام المسلمون بتنظيم العديد من الغارات على آسـيا الصـغرى، كانت تسمى الصوائف والشواتي نسبة إلى الصيف والشـتاء، ثم حاول المسلمون فـتح القسـطنطينية وحاصـروها سـنة ٦٦٩م – ٦٧٠ م ثم انصرفوا عنها، ثم عـادوا فحاصـروها فيما يسمى بحرب السبع سنوات ٦٨٤م – ٦٨٠ م، ثم مـرة ثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك واستمر هذا مـن عـام ٧١٧م – ٧١٨م.

وفي تلك الفترة كانت المعارك مستمرة بـين المسـلمين والبيزنطيين في قلب أراضـي الـدول البيزنطيـة ونجـح

المسلمون في تحرير العديد من هذه المناطق ولكنهم فشـلوا في دخول القسطنطينية.

***

واستمر الصراع بعد ذلك متمـثلا فـي المعـارك بـين العباسيين والبيزنطيين وخاصة في عهد المهدي سنة ٧٧٥م، الذي نجح ابنه هارون الرشيد أن يصل إلى مضيق البوسفور مدمرا في طريقه حصون البيزنطيين، مما اضـطر الملكـة إيرين أن توقع صلحا ذليلا يقضي بأن تدفع جزيـة للخليفـة مقدارها تسعون ألف دينار سنويا.

وفي أثناء حكم هارون الرشيد نفسه نقرأ خطابه التاريخي إلى ملك الروم الذي يقوم فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام".

وكان ما رآه جيشا إسلاميا جرارا توغـل فـي أراضـي الدولة البيزنطية وحاصر مدينة هرقلة واستولى عليها، فعـاد ملك الروم يعلن توبته واستعداده لدفع الجزية من جديد.

واستمرت الحملات الإسلامية في عهد المـأمون الـذي واصل الزحف في أملاك البيزنطيين. ومع صعود المعتصـم سجل التاريخ صفحة مشرفة من الانتصار الإسـلامي علـى أوروبا في موقعة "عمورية" سنة ٨٣٣ م التي تم بها اقتحـام تلك المدينة وطرد الروم منها. وكانت هذه المدينة تمثل شيئا كبيرا للروم حيث إنها كانـت مـوطن الأسـرة البيزنطيـة الحاكمة.

***

هذا الصراع الذي لم ينقطع بين الإسلام وأوربا، كان في أغلبه يمثل هجوما وانتصارا إسلاميا حتـى نهايـة القـرن الحادي عشر، شهد تصاعدا في النوع والدرجة بدءا من سنة ١٠٩٥ م حيث قام بابا روما بتحريض أوروبا للهجوم علـى قلب العالم الإسلامي زاعما أن ذلك واجب دينـي مسـيحي لتحرير بيت المقدس من المسلمين، وبدءا مـن هـذا العـام ١٠٩٥ وحتى عام ١٢٩١ – أي حوالي قـرنين – شـهدت المنطقة عدة حملات صليبية في الشام ومصر بل وتـونس، وسجلت العسكرية العربية انتصارات في العديد من المواقـع في حطين ودمياط وغيرهما، وسجلت رموزا مثـل صـلاح

الدين وعماد الدين زنكي وغيرهما وانتهت تلـك الحمـلات بهزيمة الصليبين ورجوعهم إلى أوروبا.

ولكن للأسف لم يكمل المسلمون النصر ويواصلوا زحفهم خلف الصليبيين إلى أوروبا ولم يفهمـوا مغـزى إصـرار الرسول ﷺ وتنبيهه لهم بأن الصراع مع أوروبـا ينبغـي أن يكون هجوميا – حين أصر على إنفاذ جيش أسـامة – وأن الهجوم هو خير وسائل الدفاع، وبذلك وقع المسـلمون فـي السكون والقعود وكالعادة كلما كفوا عـن الغـزو والجهـاد والتوسع التحريري سقطوا في التفرق والتشرذم، وظهـرت الدويلات والحكومات المتناحرة إلى أن قيض الله لهذه الأمـة رجالا أنقذوها مرة أخرى من الدمار وهم العثمانيون، الـذين وحدوا البلاد الإسلامية وأوقفوا مسلسل الانهيار إلى حـين، وشغلوا أوروبا في عقر دارها، ونجح هؤلاء العثمانيون فـي فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م على يد محمد الفاتح وانتهت بذلك الدولـة البيزنطيـة وأصـبحت القسـطنطينية تسـمى إسلامبول أي دار الإسلام، وواصل العثمانيون جهادهم فـي قلب أوروبا، فوصلوا إلى أسوار فيينا وجنوب روما واستولوا على العديد من الدول الأوربية، وبفضلهم ظلت أوروبا فـي

حالة دفاع فترة طويلة، بل ودخل الكثيـر مـن الأوروبيـين أنفسهم في الإسلام مثل البوسنة والهرسك وألبانيا وكوسـوفو وأقليات في بلغاريا ورومانيا واليونـان وفرنسـا وإيطاليـا وغيرها. ويسجل تاريخ العسكرية الإسـلامية العثمانيـة، أن العثمانيين عبروا مضيق البوسفور سنة ١٣٣٥ واستولوا على شبه جزيرة غاليبولي، ثم توغلوا في أوروبا ففتحـوا مدينـة أدرنة سنة ١٣٦١ بقيادة مراد بن أردخان وجعلوها عاصـمة لدولتهم الفتية في أوروبا، وعقب ذلك دعا البابا إلى حـروب صليبية اشتركت فيها دول البلقان ونصارى الغرب، فانتصر عليهم مراد الأول وفتح صوفيا ونيس ومقدونيا وسالونيك.

ثم عاود الصليبيون الكرة فتصدى لهم بايزيد الذي خلـف مراد الأول وهزمهم وأسر ملك الصرب، وضم صربيا إلـى الدولة العثمانية بما فيها مدينة بلجراد عاصمة يوغوسـلافيا سابقا صربيا حاليا سنة ١٤٥٢م، وحـاول سـيجموند ملـك المجر هزيمة العثمانيين إلا أنه اندحر أمـام بايزيـد الـذي واصل زحفه حتى النمسا وحاصر فيينا.

وفي سنة ١٤٥٣ قـام السـلطان محمـد الفـاتح بفـتح القسطنطينية، وواصل محمد الفاتح جهـاده فهـزم صـربيا

وضمها إلى الدولة الإسلامية وواجه حلفا من البندقية والألبان فدمرهم وضم ألبانيا للدولة العثمانية عام ١٤٦٨ وتوغل فـي البلاد التابعة للبندقية على ساحل البحـر الأدرياتيـك عـام ١٤٨٠ بعد أن سيطر على المضايق التي تفصل إيطاليا عن البلقان وهدد روما عاصمة إيطاليا نفسها وأصبح المسـلمون سادة البحرين: المتوسط والأدرياتيك ومضايقهما، ثم توالـت الفتوحات الإسلامية العثمانية، فتم فتح الهرسك سـنة ١٤٨١ ثم معظم كرواتيا واستطاع العثمانيون الوصول إلى سلوفينيا ولكنهم لم يفتحوها، وكان من الطبيعـي أن تتـآمر أوروبـا الصليبية على الدولة العثمانية وأن تظل تنهكهـا بالمعـارك والمؤتمرات حتى استطاعت أن تضعفها ثم تسقطها.

وبضعف الدولة العثمانية انفتح الباب أمام أوروبا لاحتلال بلاد العالم الإسلامي بلدا بعد بلد، مصر عام ١٨٨٢ ثم الشام، وبالتحالف مع اليهود سقطت فلسطين وتم إقامة إسرائيل عام ١٩٤٨ وهكذا. ومع دخول الاحتلال لبلادنا لم تنقطع المقاومة الإسلامية. عز الدين القسام في فلسطين، عرابي والأفغـاني ونديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا في مصـر.. وهكذا.

أي أن الصراع مازال محتدما حتى اليوم، فنجد الصـراع نفسه في فلسطين وفي البوسنة والهرسك وكوسوفا وهكذا.

***

وإذا أمعنا النظر في تاريخ وأحوال الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، نجد أن هنـاك العديـد مـن الحقائق والدروس التي لا ينبغي تجاهلها.

فإنه من الخطأ أن نتصور أن الحـروب الصـليبية فـي الشرق العربي، والتي استمرت ٣٠٠ سنة هي أهم عناصـر وأحداث هذا الصراع لأن الصراع الإسلامي الصليبي مستمر حتى يومنا هذا مع أميركا وإسـرائيل وصـربيا.. أي قبـل الحروب الصليبية في المشرق العربي وأثناءها وفـي بـلاد المغرب العربي مثلا الصراع لم ينقطع لحظة واحدة حتى أن البعض يطلق عليه هناك حرب الألف ومائتي عام.

إن الرسول ﷺ أرشدنا من خلال إصراره على إنفاذ جيش أسامة إلى أن الصراع الرئيسـي للمسـلمين سـيكون مـع الحضارة الغربية ولم يكن عبثا أن تكون إحدى وصاياه فـي مرضه أنفذوا بعث أسامة، وأن الهجوم هو خير وسائل الدفاع في هذا الصراع.

إن الجهاد بمعنى الغزو والتوسع لأداء الواجب الإسلامي في تحرير البشر من الطغيان والحكام الظالمين والمستبدين هو السبيل الوحيد لاستمرار قوة وحيوية ووحدة المسلمين، وإذا كف المسلمون عن الجهاد سقطوا في التجزئة والتخلف والضعف والتفكك.

إن علماء الإسلام لهم دور هام في تحريض الجماهير على الجهاد، أو الضغط على الحكام لأداء هذا الواجب وقد فعل هذا ابن تيمية والعز بن عبد السلام إبان الحروب مع الصليبيين والتتار.

ولقد أدركت أوروبا أن الغزو العسكري وحده لا يفيد، فعادت إلينا بعد تجربة الحروب الصليبية – أي في الغزوة الاستعمارية – بأسلوب جديد في الصراع لا يشتمل على الجيوش وحدها، بل على: إرساليات التبشير والغزو الثقافي والإلحاق الاقتصادي وإقامة مؤسسات علمانية ومغتربة تبشر بقيام الحضارة الغربية وتحاول نسف مشروعنا الحضاري الإسلامي الذي يشكل حجر عثرة في وجه المخططات الأوروبية. وتؤكد هذه المرحلة من الصراع حقيقة جديدة في التاريخ لم يعرفها العالم قبل عدة قرون، وهي التحالف

العنصري بين الغرب واليهود على حساب المسلمين، فقبـل عدة قرون قليلة كان هناك عداء بين الصليبيين واليهود بـل كان اليهود يتعرضون لأبشع اضطهاد في أوروبا.

ولكن بدءا من القرن الماضي ظهر هذا التحالف، ووجـد التبرير النظري والاستراتيجي في الفكر الغربي واليهـودي على حد سواء من خلال ما يسـمى بالتفسـير الصـهيوني للمسيحية. إنه رغم حالة الضعف والتخلف التي نعاني منها، فإننا نؤمن بأن هذه المرحلة ليست إلا حلقـة فـي الصـراع الطويل وأن المستقبل سيشهد انقـلاب المنحنـى لصـالحنا إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

الحضارة الغربية..

والمعايير العالمية

﴿ والذي خَبثَ لاَ يخْرج إلا نكِدا ﴾

الحضارة الغربية المعاصرة، والتي بدأت مسيرة صعودها منذ أربعة إلى خمسة قرون، وشملت أوروبا، ثم أميركا فيما يعرف بعصر النهضة الأوروبية، وهو العصر الذي تم فيـه بعث الثقافة والتراث والقـيم الإغريقيـة القديمـة والتـراث السياسي اليوناني والروماني. وشيئا فشـيئا سـادت الثقافـة الإغريقية كل شيء، واختلطت بالثقافة السكسونية والجرمانية وشكلت الحضارة الأوروبية المعاصرة، وهي حضارة تعكس القيم الإغريقية القديمة من وثنية، وقهر، وعنـف، ومنفعـة لاأخلاقية، وعنصرية، وإن كانت قد حملت قشـرة مسـيحية خارجية مع جوهرها الوثني الإغريقي.

وفي الحقيقة فإن المسيحية الأوروبية لم تكن قط مسيحية، بل هي إغريقية في جوهرها، ووثنية في أصلها وفرعها مع قشرة مسيحية خارجية.

ويكفي أن نعرف أن طقوس تنصيب بابا الفاتيكـان هـي نفسها طقوس تنصيب كهنة المعابد الإغريقية القديمة.

يقول السيد أبو الحسن الندوي: "ليست الحضارة الغربيـة الآن وليدة القرون المتأخرة التي تلت القرون المظلمـة فـي أوروبا أو حديثة كما يتوهم كثير من النـاس، بـل يرجـع تاريخها إلى آلاف من السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية، فقد خلفتهما في تراثها السياسي والعقلي والمدني، ورثت عنهما كل ما خلفتا مـن ممتلكـات ونظـام سياسي وفلسفة اجتماعية، وتراث علمي وعقلي، وانطبعـت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما، بل انحدرتا إليهما في الدم.

فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر حفظـه التـاريخ للعقلية الأوروبية وأول حضارة قامت على أسـاس الفلسـفة الأوروبية التي تجلت فيها النفسية الأوروبية، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية التي تحمل روحا واحـدة هـي الروح الأوربية.

وظلت الشـعوب الأوروبيـة طيلـة قـرون محتفظـة بخصائصها وطبيعتها وارثـة لفلسـفتها وعلومهـا وآدابهـا

وأفكارها حتى برزت بها في القرن التاسع عشر فـي ثـوب براق يوهمك بطلاوته وزهو ألوانه أنه جديد النسج، ولكـن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان"[1].

وإذا تتبعنا مسيرة الحضارة الأوروبية منذ عهدها اليوناني والروماني نجد أن الدولة الرومانية عكست مثلا الانحطـاط الأخلاقي، واستعمرت البلدان الأخرى، ونهبتها، واضطهدت غير الوثنيين، وعندما ظهرت المسيحية تعرضت للاضطهاد الواسع على يد الدولة الرومانية، وعندما دخلـت المسـيحية الوثنية الرومانية، أصبحت "وثنية"، ولم تصـبح الرومانيـة "مسيحية". وبدأ الرومان يضطهدون المسيحيين المخالفين لهم في المذهب واشتدت عمليات الإحراق والقتـل للمسـيحيين المخالفين لمذهب الدولة حتى أنه في بلد مثل مصـر سـقط آلاف القتلى لدرجة أن الكنيسة المصرية أطلقت علـى هـذا العصر "عصر الشهداء".

وتحولت الكنيسة إلى مؤسسة للقهر والنهب بحـد ذاتهـا فمارست الاضطهاد، ونهب الأتباع، والتحالف مع الأمـراء،

---

[1] أبو الحسن الندوي – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٦٧.

والدخول في الصراعات المستمرة داخل أوروبا، وظهـرت محاكم التفتيش، واضطهاد المسيحيين في الأنـدلس واليهـود وغيرهم وحتى أصحاب الرأي الأوروبيين أنفسهم، ويكفي أن نعرف أن هناك مئـات المـذابح التـي وقعـت للمـذهب البروتستانتي على يد الكاثوليك، وعندما تمكن البروتسـتانت في بعض البلدان قاموا بدورهم بتنظيم المذابح للكاثوليـك.. وهكذا، بل هناك حروب دينية استمرت عشـرات السـنين، فالاضطهاد الديني سمة مميزة للحضارة الغربيـة فـي كـل مراحلها[١].

ثم توجهت أوروبا بعد ذلك إلى اضطهاد وقهـر ونهـب الشعوب الأخرى، فمع الكشوف الجغرافية التي بـدأت فـي بلاط الملوك وخاصة الإسبان والبرتغاليين، ومـع اكتشـاف الأميركتين وأستراليا قامت الحضارة الأوروبية بإبادة الهنود الحمر في الأميريكتين وهم سكانها الأصليون، وكـذا قامـت بإبادة أهل أستراليا الأصليين المعروفين باسم "الأبوريجين" ثم احتلت آسيا وأفريقيا ونهبتهما بلا هوادة، واسترقت من أهـل

---

[١] د. توفيق الطويل – قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام – الزهراء للإعلام العربي – القاهرة ١٩٩١

أفريقيا حوالي ١٠٠ مليون أفريقـي جلبـوا مـن أفريقيـا، وبعضهم مات في الطريق لسوء المعاملة والآخرون وصلوا إلى أوروبا وأميركا، مع العلم أن هذا العدد في ذلك الوقـت كان يماثل أكثر مـن ٣٠ ضـعف سـكان إنجلتـرا، أي أن الحضارة الغربية استرقت أو أبادت في أفريقيا وحـدها ٣٠ ضعف عدد سكان إنجلترا[١].

وهؤلاء الأرقاء وكذا الثروات المنهوبة استخدموا في دفع عملية اقتصادية هائلة تمخضت عن ظهور الرأسـمالية ثـم الثورة الصناعية[٢]، وذلك لتسـتخدم هـذه الآليـة الجديـدة السياسية والعلمية "الرأسمالية والثورة الصناعية" في المزيـد من النهب والاسترقاق، وكانت المحصلة النهائية هي الرخاء والرفاهية المادية لجزء من العالم "أوروبا وأميركـا" علـى

(١) محمد خليفة – حوار معرفي شامل مع أحمد بن بيلا – مجل البديل الباريسية.

(٢) نشأت البنوك الربوية وهي عصب الرأسمالية على مقاهي أرصفة الموانى التي كانت تجلب إليها الرقيق والموارد المنهوبة عن طريق عمليات تمويل جلب الرقيق والموارد المنهوبة على أرصفة هذه الموانى، وهذا يؤكد أن الرأسمالية نشأت نتيجة الاستعمار، وليس العكس كما يدعى الماركسيون السلفيون.

حساب ٨٠% من سكان العالم "عالم الجنوب عموما" وحتى سكان الشمال لم يحظوا جميعا بالرفاهية، بل قطاع صغير منهم على حساب الأغلبية.

وفي الجزائر مثلا تم إبادة مليونين من السكان في وقت كانت الجزائر فيه ٤ ملايين أي أنهم أبادوا نصف السكان، وقياسا على ما حدث في الجزائر من الممارسات الأوروبية تكرر في المغرب وليبيا والهند وإندونيسيا وفيتنام، ولعل من أهم هذه الجرائم جريمة إقامة إسرائيل على حساب شعب فلسطين، وما يتعرض له هذا الشعب من اضطهاد وقتل وتهجير – ثم آخر الجرائم الأوروبية الآن وهي عملية التطهير العرقي المتمثلة في الإبادة والتهجير لمسلمي البوسنة والهرسك.

إذن فالوثنية والعنف والقهر والنهب هي سمات ثابتة للحضارة الغربية، وبمناسبة العنف فإن الحضارة الغربية قائمة على الصراع لذا لا تستطيع أن تكف عن العنف لأنه في صميم تركيبتها الداخلية، وهي تمارسه حتى مع نفسها، وما يؤكد هذا الأمر اندلاع حربين عالميتين ما بين سنوات ١٩١٤ – ١٩٤٥ والتي راح ضحيتها أكثر من ٦٢ مليون

إنسان معظمهم من الأوروبيين أنفسهم وبالإضافة إلـى تلـك السمات هناك سمة العنصرية، وهي سمة أساسية في تلافيف العقل الأوروبي.

والتمييز العنصري والتطهير العرقي من الأشياء المتواترة في السلوك الأوربي فضلا عن إبادة أجناس كاملة مثل الهنود الحمر والأبوريجين "سكان أستراليا الأصـليين" واسـترقاق ١٠٠ مليون أفريقي، وإقامة إسرائيل علـى حسـاب شـعب فلسطين.

فضلا عن هذا كله هناك التمييز العنصري فـي أفريقيـا وفي الولايات المتحدة الأميريكية الذي ظل سياسـة رسـمية لمدة طويلة، وما زال سياسة رسمية في جنوب أفريقيا، ومـا زال موجودا في الولايات المتحدة الأميركية كسلوك ووجدان ولعل في أحداث لوس أنجلوس الأخيرة سنة ١٩٩٢ ما يؤكد هذا، ولعل وصول هذا الأمر إلى سلوك القضاة الأميـركيين حيث انحازوا إلى الأبيض على حساب الأسود ما يؤكـد أن الأمر يدخل في تلافيف العقل الأميركي، لأن إصابة مؤسسة القضاء بسمات عنصرية هذا يعني أن العضوية موجودة في

كل شيء في أمريكا، والأمر نفسه يظهر في ازدواج المعايير الغربية حيال القضايا في العالم.

وهذا الازدواج في المعايير يظهر في قضـية فلسـطين، ويظهر في استحلال إسقاط طائرة إيرانية مدنيـة ومصـرع ركابها، وتحريم ذلك – على فرض صـحته – علـى ليبيـا المتهمة بإسقاط طائرة أميركيـة، وكـأن أرواح المسـلمين لا قيمة لها، ويظهر في ذلك جليا السـلوك الغربـي تجـاه عمليات التطهير العرقي في البوسنة والهرسك.

ومن السمات الأساسية في الحضارة الغربية مسألة المنفعة اللاأخلاقية وعدم المسئولية تجاه البيئة، فمن أجل الربح يمكن إنشاء كل شيء، فالآلة الصناعية الغربية أدت إلـى إعـدام الزراعة في كثير من بلدان العالم، والتلاعـب فـي أسـعار الخامات أدى إلى إفقار كل الدول النامية، والبنك الدولي نفسه يعترف أن هناك الآن ٤١ دولة مفلسة لا تستطيع حتـى أن تدفع فوائد ديونها، وأن هناك ٧٥% من سكان الأرض تحت مستوى خط الفقر، وهناك خمسون مليونا من البشر يموتون سنويا في العالم بسبب الجوع بينهم خمسة عشر مليون طفل.

فمن أجل الربح يمكن عمل أي شيء، هذه هـي أخـلاق الحضارة الغربية لا مانع من تدمير التوازن البيولوجي فـي الأرض.

فهناك مثلا ١٧ مليون هكتار من الغابات يـتم تـدميرها سنويا، وهي عنصر التوازن البيئي الأول، وقد دمر بالفعـل ٤٠% من الغابات الاستوائية، وفـي ألمانيـا ذاتهـا الغابـة السوداء الشهيرة ستنتهي خلال عدة سنوات كما انتهت بالفعل غابات في البرازيل وسويسرا وغيرهمـا، وهنـاك زحـف الصحراء، ثم التلوث البيئي، وثقب الأوزون بسبب الإنتـاج الصناعي غير المأمون والتجارب النووية، وأصبحت الأرض كلها ومستقبل الحياة البيولوجية في خطـر بسـبب سـلوك الحضارة الغربية القائمة على فكرة المنفعة اللاأخلاقية وغير المسئولة.

***

إذن فالحضارة الغربية هي حضارة الوثنية والعنف والقهر والنهب والعنصرية والمنفعة اللاأخلاقية، وهي خطر علـى العالم وعلى نفسها ولا سبيل إلى إصلاحها. وإذا أخذنا علـى سبيل المثال الإفرازات السياسـية والاجتماعيـة والمـذاهب

الفكرية التي أفرزتها الحضارة الغربية نجدها كلها إفـرازات إجرامية: الرأسمالية، والاشتراكية، الديمقراطية، الشـيوعية، النازية، الفاشية.. إلخ، وهي كلها تحمل السـمات المتميـزة والثابتة للحضارة الغربية؛ فالنازية والفاشية مثلا معروفتـان بممارساتهما الوحشية تجاه شعوب العالم، وتجاه الأوروبيـين أنفسهم، وسجلهما في انتهاك حقوق الإنسان أشـهر مـن أن يعرف، والرأسمالية أبشع نظام اقتصادي ظهر في التـاريخ، ونشأ أصلا نتيجة تراكم الثروات المنهوبة، واسترقاق الأيدي العاملة من أفريقيا، وتسبب في نهب العالم بصـورة منظمـة بدأت بالاستعمار التقليدي وانتهت بالبنك الـدولي، واتفاقيـة "الجات" والتلاعب في أسعار الخامات.

والشيوعية انتهت بعد أن ارتكبت أبشع الجرائم في حـق شعوب الاتحاد السوفييتي السابق الذي ضم جمهوريات بالقوة إليه، مثل أذربيجان وطاجيكستان وغيرهما من الجمهوريات الإسلامية وكـذا جرائمـه فـي المجـر وتشيكوسـلوفاكيا وأفغانستان.

وعلى كل حال فإن انهيار الشـيوعية، وثبـوت فشـلها النظري والتطبيقي لا يعني صحة الرأسمالية، بل يعني فساد

كل الإفرازات السياسية للحضارة الغربية، لأن الشيوعية مثل الرأسمالية خرجت من الأرضية الثقافية للحضـارة الغربيـة ومعنى سقوطها الدولي أن تلك الأرضية فاسـدة، ولا تنـتج إلا القيح والصديد، وفساد الأرضية الثقافية للحضارة الغربية هو فساد الحضارة الغربية برمتها.

أما الاشتراكية الديمقراطية – وهي التي يحلو للبعض أن يروج لها أو ينخدع بها فهي مثـل غيرهـا مـن إفـرازات الحضارة الغربية لا تشذ عن القاعدة، وانظر إلى ممارسـتها في الواقع، ففي بلد مثل الجزائر مثلا تعرض الشعب للإبادة والتعذيب إبان كل العهود الفرنسية من ملكيـة وجمهوريـة، رأسمالية واشتراكية – يمين ويسار، بل إن معـدل الإبـادة والتعذيب كان يرتفع إبان الحكومات الاشتراكية في فرنسا.

ولا ننسى في هذا الصدد أن الاشتراكية الديمقراطية هـي أكبر من يدعم إسرائيل، بل إن إسرائيل عضو نشط بها، وأن العدوان الثلاثي على مصر جاء من ثلاث دول كانت تخضع وقتها لحكومات اشتراكية وديموقراطية هي حكومـة حـزب العمال البريطاني، وحكومة الحزب الاشـتراكي الفرنسـي، وحكومة حزب العمل الإسرائيلي.

وقد يقول قائل: "إن الحضارة الغربية يمكن أن تعالج انحرافاتها ونقاط ضعفها؛ وبالتالي تجدد نفسها وتحسن سلوكها، وهذا القول يعكس جهل أصحابه بطبيعة وجوهر الحضارة الغربية، لأن الانحرافات هنا عبارة عن قيم أصلية وثابتة داخل جسم الحضارة الغربية وليس أمرا عارضا عليها أو ناشئا من انحراف الممارسة، إنها تنبع من داخلها بطريقة تلقائية وضمنية بحيث يصبح من المستحيل عليها معالجتها أو التخلص منها، وإذا حاول أهل الحضارة الغربية التخلص من تلك القيم المنحرفة فإنهم سيتخلصون من الحضارة الغربية ذاتها.

فمثلا إن السعي لتحقيق أقصى درجات القوة المادية من أجل السيطرة على العالم ونهب ثرواته بلا حدود يجعل تلك الحضارة تدوس على كل القيم والمعايير التي تتعارض مع هذا السعي، أو بتعبير آخر إن ذلك السعي يسخر كل شيء من أجله، وهذا في حد ذاته يسمح بالتفوق في مجالات محددة، وهذه نقطة قوة أساسية في الحضارة الغربية، وهي أيضا فسادها في المجالات اللاأخلاقية والإنسانية والنفسية واندلاع أشد الصراعات الداخلية والخارجية مما يشكل بدوره

نقطة السوء المركزية في هـذه الحضـارة. وهـذه النقطـة بالتحديد هي التي سببت ازدهار الحضارة الغربية وسببت في الوقت نفسه شقاء الآخرين، بل إنها النقطـة التـي ستصـل بالحضارة الغربية إلى الانهيار في نهايـة المطـاف إن لـم تعرض مستقبل الإنسانية كلها إلى خطر قريب مـن خطـر الإبادة الجماعية"[١].

وكذلك إذا حاول نظام حكـم عنصـري الـتخلص مـن عنصريته فإنه في الحقيقة يتخلص من نفسه، لأن العنصـرية هنا هي التي شيدت بناءه، وهي التي سمحت له بالازدهـار على حساب الآخرين، فلولا النهـب والاسـترقاق والفصـل العنصري لما كان هذا النظام قد نشأ أصلا ولما كان قد حقق لنفسه هذا الرخاء ولما استطاع أن يستمر لحظة بعد التخلص من العنصرية.

الحضارة الغربية في صورتها الأميركية

أميركا بالطبع جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية، بـل هي تمثل أسوأ مراحل تلك الحضارة، بل هي أكثـر الـدول

---

[١] منير شفيق – الإسلام في معركة الحضارة.

تمثيلا للقيم المنحطة لتلك الحضارة، والأميركيـون أنفسـهم لا يكفون عن تأكيد أن الولايات المتحدة الأميركية هي جزء من الحضارة الغربية، ويعتبر نيكسون أن هناك وطنا مشتركا عبر المحيط الأطلنطي[1].

يقول نيكسون: "علينا أن نسعى لبناء وطن مشترك عبـر المحيط الأطلنطي من كاليفورنيا حتى كمشاتكه"[2]، ويضـيف نيكسون: "إن القيم الحضارية للغرب خلقت روابـط فلسـفية أقوى بكثير من جغرافية القارة"[3].

وأميركا التي هي جزء لا يتجزأ من الغرب نشأت أساسـا من خلال جريمة ضخمة ارتكبتها الحضارة الغربية ألا وهي إبادة شعب الهنود الحمر واستلاب أرضه والعيش فيها رغـم أنفه وعلى حسابه.

---

(1) أفرد نيكسون في كتابه – الفرصة السانحة – فصلا تحت عنوان "الوطن المشترك عبر المحيط الأطلنطي" تحدث فيه عن الوحدة الحضارية بين أميركا وأوروبا.

(2) ريتشارد نيكسون – الفرصة السانحة – ترجمة أحمد صدقي مراد – دار الهلال مصر ١٩٩٢.

(3) نفس المصدر السابق.

أباد الأميركيون أكثر من مائة مليون من الهنود الحمـر، وهو رقم كبيرا جدا بحساب وقت تنفيذه، أي أن كل مهـاجر قد أباد أربعة من الهنود الحمر، وبالتالي فقـد عـاش فـوق جماجم أربعة من البشر، وهؤلاء الذين سلبوا أميركا وأنشئوا على أنقاض أهلها دولـتهم، كـانوا أساسـا مـن حثـالات المهاجرين والمغامرين والأفاقين الأوروبيين، أي أنهم أسـوأ إفرازات الحضارة الغربية التي هي بدورها سيئة.

وبعدها بدأ بناء أميركا باستجلاب الرقيق الأفريقي، ومـن خلال استعباد الرقيق في العمل ازدهر الاقتصاد الأميركـي، وتم بناء أميركا، أي أن أميركا قامت من خـلال جـريمتين، جريمة إبادة الهنود الحمر وجريمة استرقاق السود، وبالتـالي فإذا كانت الحضارة الغربية حضـارة منحطـة فإنهـا فـي صورتها الأميركية، أكثر انحطاطا، وهذه الصورة الأميركية للحضارة الغربية تمثل أقبح صور هذه الحضارة.

وبالطبع فإن من المتوقع أن تكون ممارسات أميركا مماثلة لممارسات أمها – الحضارة الغربية – في سلوكها المـنحط، وفي النهب والقهر والعنصرية والإبادة والمنفعة اللاأخلاقية، بل علينا أن نتوقع المزيد من التفنن في هذا الإطار، وهكـذا

وجدنا أميركا تنهب الشعوب، وتعتدي عليها في أميركا اللاتينية وفيتنام وليبيا والخليج، ونجدها الأكثر انحيازا للكيان الصهيوني على حساب الشعب الفلسطيني، ونجدها تمثل أقبح صور ازدواج المعايير في سلوكها الدولي.

وأخطر ما في الأمر أنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق، وانتهاء الحرب الباردة فإن أميركا تريد الهيمنة الكاملة على العالم من خلال ما أسمته هي: النظام العالمي الجديد، وهذا يعني إدخال العالم طوعا أو كرها في دائرة الهيمنة والتبعية لأميركا والخضوع لما تريده قيميا ومصلحيا، وهذا معناه أن العالم في أسوأ فتراته حيث هذه القوة المنفردة الجديدة تحمل كل القيم المنحطة، ولن تتورع عن استخدام أشد الوسائل عنفا وقسوة في سبيل تحقيق أهدافها.

تناقضات ثانوية وأخرى جوهرية

ينبغي في إطار فهمنا للحضارة الغربية، أن ندرك أنه وفقا لتركيبتها الشيطانية الصراعية فإنها لا تتوقف عن الصراع مع غيرها أو مع نفسها، ويمكننا أن نتوقع حدوث صراعات وصدامات صغيرة أو كبيرة، طويلة أو قصيرة بين قوى الحضارة الغربية أنفسها – الدول الأوروبية وبعضها – كما

حدث سابقا وبين أوروبا وأميركا كما يمكن أن يحـدث فـي المستقبل القريب!

وعلينا أيضا ألا ننخدع بهذه الصـراعات فنعمـل فقـط انطلاقا من العداء الجوهري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وأن ندرك أن الصراعات بين قـوى الحضـارة الغربية لن تكون أبدا إلا على الغنيمة وليس من أجل إنصاف الغنيمة أو إعطائها حقها، حتى إذا ادعى هذا الطرف أو ذاك من أطراف الحضارة الغربية أنه يعمل مـن أجـل الحريـة أو حقوق الإنسان أو غير ذلك.

ونحن إذ نرصد الصراع بين قـوى الحضـارة الغربيـة لا نمانع من الاستفادة منه، في إطار أنه صراع ثانوي بـين هذه القوى يختفي ويتلاشى مع ظهور التنـاقض الجـوهري بينهم جميعا من طرف وبين الحضارة الإسلامية من طـرف آخر.

الفصل الرابع

الحضارة الإسلامية

والمعايير العالمية

الحديث لا ينقطع هذه الأيام – بعد أن أصبح العالم شـديد الترابط – عن معايير دولية واحدة، ومصير إنساني واحـد، ونمط حضاري واحد.

ونحن نرضى بهذا الأمر، ولا نرفضه بشـرط أن يكـون ذلك من خلال الاختيار الحـر ولـيس الإكـراه والإجبـار والإلحاق القسري بالحضارة الغربية.

نعم يمكن أن يسود العالم نمط حضاري واحد، ويمكن أن تتعايش فيه أكثر من حضارة دون أن تمارس إحداها علـى الأخرى قسرا أو إلحاقا أو تبعية.

وفي الحالتين فإن الحضارة الغربية لا تصلح، لأنهـا أولا لا تقبل التعايش مع الحضارات الأخرى بل دائمـا تحـاول القضاء عليها أو إلحاقها قسرا، ولأنها ثانيا حضـارة ليسـت ذات معايير عالمية، وبدهي أن الحضارة التي نريد أن تسود

العالم يجب أن تكون عالمية المعايير، بالإضافة إلى شـروط أخرى كالعدل والمساواة والإحساس بالمسئولية وغيرها.

والذين يدعون إلى سيادة الحضارة الغربية علـى العـالم يدعون في الحقيقة إلى سيادة حضارة غيـر عالميـة علـى العالم، وهذا منتهى التناقض والمغالطة، وما دام الحديث عن العالمية فلنبحث فيما إذا كانت تلك الحضارة الغربية المرشحة للسيادة ذات قيمة عالميـة أم لا، أي أن تخضـع الحضـارة الغربية في قيمها وخصائصها وممارساها لفحص وتمحـيص على مستوى عالمي.

الحضارة العالمية مثلا – ولأنها عالمية أي تضم الأبيض والأسود والأصفر والأحمر – يجب أن تكون لاعنصرية، أما الحضارة الغربية فهي عنصرية حتـى النخـاع، وسـجلها العنصري حافل، بدءا من إبادة شـعوب وأجنـاس كـالهنود الحمر والأبوريجين ومرورا باسترقاق السود وانتهاء بإقامـة إسرائيل على حساب شعب فلسطين.

الحضارة العالمية يجب أن تكون غير مزدوجة المعايير، تقيس الجميع بمعيار واحد الأوروبـي والعربـي والهنـدي والصيني، الأبيض والأسود والأحمر، أما الحضارة الغربيـة

فهي مزدوجة المعايير، فلا يعقل مـثلا أن تتجاهـل طـرد وتشريد الشعب الفلسطيني وقمعه بلا رحمة على يد القـوات الإسرائيلية، أي أن تتجاهل الإرهاب الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني واللبناني وتصيح في وجه الإرهاب الليبي. لـيس من المعقول أن تتحدث الحضارة الغربية عن حقوق الإنسان، والديمقراطية وحرية الانتخابات ونزاهتها ثم لا تقبل بخيـار الشعب الجزائري من خلال صناديق الانتخاب، وتتآمر على هذا الخيار وتدعم حكومة جزائرية توقف المسار الانتخـابي ولا تحترم إرادة الناخبين الجزائريين.

الحضارة العالمية يجب أن تسعى لإسعاد كل البشر وليس أوروبا وأميركا وحدهما، والحضارة الغربية ليست عالميـة بهذا المعيار، لأنها تعتمد في رفاهية أوروبا وأميركـا علـى نهب ثروات الشعوب الأخرى؛ والتلاعب في أسعار الخامات وتصيغ النظام الاقتصادي العالمي بصورة تحقق أقصى نهب ممكن للعالم الثالث.

الحضارة العالمية – وبما أنها عالمية – يجب أن تكـون أمينة على البيئة ومستقبل الحياة البشرية على الأرض وأمان هذه الحياة، أما الحضارة الغربية فهي حضارة غير أمينـة،

تفسد البيئة، وتخل بالتوازن البيولوجي في الأرض، وتـؤدي إلى التلوث، ويمكن أن تؤدي إلى كارثة على مستوى الكـرة الأرضية كلها، وليس ثقب الأوزون إلا حالة واحدة ومؤشـر واحد في هذا الصدد.

الحضارة العالمية يجب أن تكون حضارة ذات مسـئولية أخلاقية والحضارة الغربية التي يموت في ظلها ٥٠ مليونـا من البشر جوعا سنويا منهم ١٥ مليون طفل ليست عالميـة بهذا المعيار.

إذن فالمعايير العالمية تجعل الحضارة الغربيـة حضـارة غير عالمية، وبالتالي فمن الطبيعي والواجب في إطار البحث عن الحضارة العالمية أن نبحث عن حضارة أخـرى غيـر الحضارة الغربية.

وإذا بحثنا عن المنظومات الحضارية لنأخذ منها واحـدة تصلح لصفة العالمية، نجد أن الحضارات – التـي عرفهـا العالم - إما اندثر بعضها، وإما أنها لا تحمل رسالة ثقافيـة عالمية، ولا يوجد غير الحضارة الإسلامية التي تحمل صفة العالمية؛ لأنها تمتلك رصيدا هائلا من التراث القيمي والثقافي ولأنها أثبتت حيويتها وإيجابيتها وصمدت أمام ضغوط هائلة،

وخرجت منها أكثر قوة في كـل مـرة، أي أنهـا حيويـة وموجودة حتى الآن ومستمرة، وغير قابلة للانهيار لأسـباب كثيرة، لأن هناك تواصلا حضاريا إسـلاميا مسـتمرا، لأن الإسلام يحمل معايير عالمية، ولأنـه يضـم الآن مسـاحة جغرافية وسكانية هائلة تمتد من طنجة إلى جاكرتا ومن أنقرة إلى جنوب أفريقيا. وكذا الإمكانيات والثروات الهائلة التـي يتمتع بها العالم الإسلامي، لـذا فمـن الطبيعـي أن تكـون الحضارة الإسلامية هي المرشحة لتكون الحضارة العالميـة. وفي هذا الصدد فإن هناك العديد من العوامل التـي تزكـي وترجح هذا الاتجاه.

النقطة الأولى: فالعالم الإسلامي يقف في ثقله الأساسي في قلب العالم وفي أهم المسـاحات الجغرافيـة فيـه، كمـا أن المسلمين يوجدون بنسب متفاوتة في جميع القارات والـدول بعكس الحضارة الغربية التي تتركز في أوروبـا وأميركـا الشمالية وأستراليا، ولا يمكننا أن نقول:

إن هناك تواجدا حضاريا حقيقيا للحضارة الغربيـة فـي أميركا الجنوبية أو أفريقيا أو آسيا، لأن الموجود فـي تلـك البلاد شكل من أشكال الخضوع والإلحـاق القسـري، دون

السماح لأهلها بدخول البيت الحضاري الغربي، أما المسلم في أي مكان فيحمل بالضرورة السمات الحضارية للإسلام سواء كان في: آسيا أو أفريقيا أو أوروبا أو أستراليا أو أميركا الشمالية أو الجنوبية أو حتى في بلاد الواق واق.

والنقطة الثانية في هذا الصدد: أن القيم الحضارية الإسلامية من خلال المسلمين موجودة في كل القوميات والأعراق والجنسيات؛ فالعربي والتركي والفارسي والهندي والصيني والياباني والكوري والأوروبي والأميركي بل والقوقازي يوجد بينهم مسلمون، وكذلك البيض والحمر والصفر بينهم مسلمون بعكس الحضارة الأوروبية القائمة على الجنس الأبيض مما يجعل الحضارة الإسلامية مقبولة مسبقا من كل القوميات والأعراق والأجناس والألوان، بعكس الحضارة الغربية التي تقتصر على جنس واحد هو الأبيض ومساحة جغرافية محدودة في أوروبا وبعض أجزاء أميركا الشمالية واستراليا.

والنقطة الثالثة في هذا الصدد: هي أن الحضارة الإسلامية في أوج قوتها نجحت في التعايش مع العديد من الحضارات الأخرى دون أن تمارس قهرا حضاريا على أحد، بل

وسمحت لهذه الحضارات أن تعبر عن نفسها، وأن تستمر، ولو كانت الحضارة الإسلامية حضارة تقوم على القهر لأدمجت تلك الحضارات معها قسرا أو دمرتها، وكانت تمتلك القوة لتحقيق ذلك، وبالتالي فإن جميع الحضارات التي ماتزال موجودة على وجه الأرض يمكن أن تقبل التعايش في ظل الحضارة الإسلامية دون قلق، ويمكن أن تتفاعل معها بلا حساسية، لأنها قريبة من العائلة الحضارية للمسلمين، لأنها من خلال التعايش مع الإسلام أيام مجده نسجت علاقات ووشائج يمكن البناء عليها اليوم، بل إننا لا نبالغ في القول:

إن الانتماء الحضاري الإسلامي لا يقتصر على المسلمين بل يضم معهم معظم سكان آسيا وأفريقيا، فمسيحيو الشرق مثلا يؤكدون على الانتماء إلى الحضارة الإسلامية وإلى الإسلام كثقافة ووطن وحضارة مع احتفاظهم بعقيدتهم الدينية: فها هو الزعيم المسيحي القبطي "مكرم عبيد" يقول: "أنا مسلم وطنا مسيحي عقيدة".

***

وإذا تركنا هذه الجوانب التي تزكي ترشيح الحضارة الإسلامية لتكون حضارة العالم في الغد، وأخضعنا القيم

الحضارية الإسلامية للمعايير الضرورية لأي حضارة تريد أن تكون عالمية مثل: اللاعنصرية وحماية الأقليات والحرية والعدل وعدم ازدواج المعايير والمسئولية تجاه الآخرين وتجاه الأمان البيولوجي والبيئي نجد أن الإسلام خير من يمثل هذه المعايير العالمية، فهو أولا خطاب الله تعالى للبشر كافة رحمة بهم وإرشادا لهم ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [1] ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا** ﴾ [2] ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾[3]، وهو ثانيا يعلي قيمة الإنسان ويكرمه تكريما من حيث هو إنسان ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[4].

والإنسان في التصور الإسلامي هو مخلوق فيه شيء من روح الله، وليس مجرد حشرة متفوقة كما ترى الحضارة

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (١٠٧)

[2]سورة الأعراف: الآية (١٥٨)

[3] سورة سبأ: الآية (٢٨)

[4] سورة الإسراء: الآية (٧٠)

الغربية ﴿ **فَإِذَا سويتُه ونَفَخْتُ فِيهِ مِن روحِـي فَقَعـوا لَـه ساجِدِين** ﴾ [1] وقد جعله الله خليفته في الأرض ﴿ **إِني جاعِلٌ فِي الأَرض خَلِيفَةً** ﴾ [2] بل وسخر له كل شـيء فـي هـذه الأرض وما حولها، والعلاقة بين الإنسان – فـي التصـور الإسلامي – والكون والكائنات هي علاقة انسجام واحتـرام، وليست علاقة إفساد، وبالتالي فالحضارة الإسلامية حضـارة أمينة على التوازن البيولوجي والبيئي ولا يمكـن أن تشـكل خطرا على مستقبل الحياة على الأرض، ولا يمكن أن تؤدي بها إلى كارثة كما هو متوقع في ظل الحضارة الغربية.

وعمل الإنسان على هذه الأرض في التصور الإسـلامي مرتبط بالمسئولية أمام الخالق وبالتالي فلا يبحث عن منفعـة غير أخلاقية بل يبحث عن منفعة ترضي الله، وتسعد الإنسان وتحافظ على البيئة، وهناك حرص دائم على التوازن الفردي والجماعي والبيولوجي والبيئي.

إن الحضارة الإسلامية أيام الدولة العباسية مـثلا كانـت تستطيع تحقيق إنجازات علمية عظيمة لا تقـل عـن هـذه

---

(1) سورة ص : الآية (٧٢)

(2) سورة البقرة: الآية (٣٠)

الإنجازات التي نعاصرها الآن، ولكـن المسـار الصـحي المرتبط بالغايات والأهداف الأخلاقية حال دون ذلـك لأنـه غير ضروري للإنسان في ذلك الوقت ولأنه يمثـل خطـرا عليه ﴿ **كُلُوا مِن طَيباتِ ما رزقْنَاكُم ولاَ تَطْغَـوا فِيـهِ** ﴾ [1] ﴿ **هو الَّذِي جعلَ لَكُم الأَرض ذَلُولاً فَامشُوا فِي منَاكِبِها وكُلُوا مِن رزقِهِ وإِلَيهِ النشُور** ﴾[2].

والحضارة الإسلامية ليست مسئولة فقـط تجـاه الكـون والأرض والبيئة، بل هي مسئولة أيضا عن البشر المسـلمين وغير المسلمين، فإذا كانت الحضارة الغربية يموت في ظلها وبسببها ٥٠ مليونا من البشر سنويا بسبب المجاعـة، مـن ضمنهم ١٥ مليون طفل فإن الحضارة الإسـلامية لا تسـمح بالجوع [3] في أي ظرف ولا تسمح بأن يستأثر مجموعة من الناس بالرفاهية على حساب الآخرين ﴿ **كَي لاَ يكُون دولَـةً**

---

[1] سورة طه: الآية (٨١)

[2] سورة الملك: الآية (١٥)

[3] الجوع في الأرض لا يرجع إلى نقص الموارد ولكن يرجع إلى سوء استخدامها أو سوء توزيعها ﴿ **وآتَاكُم من كُلِّ ما سأَلْتُموه وإِن تَعدوا نِعمتَ اللهِ لاَ تُحصوها إِن الإِنْسان لَظَلُوم كَفَّار** ﴾.

بين الأغْنِياءِ ﴾ [1] (ليس منـا مـن بـات شـبعان وجـاره جائع)[2].. والجار هنا قد يكون فـردا أو أسـرة أو مدينـة أو دولة أو قارة وهكذا،.. (إذا جاع الناس فلا مال لأحد)[3] (لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتهـا علـى الفقـراء)[4] (ما حرم فقير إلا بما متع به غني)[5].

وليس الجوعى أو الفقراء أو الأطفال وحدهم الذين تقـول الشريعة الإسلامية بمسئولية الدولة الإسلامية عنهم، بل حتى الحيوانات فعمر بن الخطاب يقول: "لو أن دابة في العـراق عثرت لخفت أن يحاسبني الله عليها ويقول يا عمر لماذا لـم تمهد لها الطريق".

والرسول ﷺ يأمرنا بالرحمة بالطير والحيوان بل يأمرنـا بأن نحسن ذبح الكائنات التي نستعملها في الأكل رحمة بها، وكذا قصة المرأة التي دخلت النار في قطة لأنهـا حبسـتها،

---

(1) سورة الحشر: الآية (٧)

(2) حديث لرسول الله ﷺ

(3) حديث لرسول الله ﷺ

(4) قول لعمر بن الخطاب ﷺ

(5) قول لعلي بن أبي طالب ﷺ

لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، وكـذا قصة الرجل الذي دخل الجنة لأنه سقى كلبا عطشان.

بل ويجعل الإسلام الأمة الإسلامية مسئولة ليس فقط عن الحاضر، بل عن المستقبل أيضا، فلا يمكـن التفكيـر فـي مصلحة الجيل الحالي على حساب الأجيال القادمة ﴿ **والـذِين آمنُوا واتبعتْهم ذُريتُهم بِإِيمانٍ أَلْحقْنَا بِهِم ذُريتَهم وما أَلَتْنَاهم من عملِهم من شَيءٍ** ﴾[1] (اعمل لدنياك كأنك تعـيش أبـدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)[2] (من سن في الإسـلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلـى يـوم القيامة)[3] والشريعة الإسلامية تقول: إن علـى الإنسـان أن يترك أولاده من بعده أغنياء بدلا من تركهم فقراء وعالة على الناس.

---

(1) سورة الطور: الآية (٢١)

(2) قول مأثور.

(3) حديث شريف – رواه البخاري ولعل هذا الحديث يؤكد مسئولية الحضارة الإسلامية تجاه الكون كله، فلا نترك البعض يفسد البيئة، ويخل بالتوازن البيولوجي كما تفعل الحضارة الغربية.

وهكذا فإن الحضارة الإسلامية ذات مسئولية تجاه الكـون والأرض والبيئة والبشر والحيوانات والطيور، وذات مسئولية تجاه الحاضر والمستقبل أيضا، بل هي مطالبة بمنع الآخرين من الإفساد والتصرف اللامسئول.

ففي حديث الرسول ﷺ: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضـهم أعلاهـا وبعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسـفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصـيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا!! فإن تركوهم وما أرادوا هلكـوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا".

وهكذا فالمسئولية الأخلاقية للحضارة الإسـلامية تؤكـد ضرورة حماية البيئة ومنع الآخرين من العبث بها والمحافظة على أمان كوكب الأرض ومنع الحضارة الغربية من إفساده، لأن الأمر أشبه هنا بالسفينة، وكذا فإن الحضارة الإسـلامية تحمل مسئولية تجاه الآخرين وتجاه البشر والكائنات الأخرى غير البشر، بل وتؤكد على المسئولية الإنسانية للإنسان تجاه نفسه فلا ينتحر مثلا، وتجاه أولاده فلا يتركهم عالـة علـى

الناس، وتجاه والديه ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ وتجاه زوجته وأسرته وهكذا.

***

وانطلاقا من هذه المسئولية شرع الله الجهاد للمسلمين لمنع الظلم والقهر وتحرير كافة البشر، ولم يكن الجهاد الإسلامي والفتح الإسلامي بسبب رغبة في النهب أو القهر أو السيطرة، بل من أجل تحرير جميع البشر وتحقيق حرية الاختيار أمامهم، بمعنى إزالة الأنظمة الطاغية التي تقهر الناس على الفقر أو الجهل أو تخضعهم لأفكار معينة لا يستطيعون رفضها، ثم ترك الناس بعد ذلك، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر دون خوف أو إفقار أو تعسف أو نهب أو ظلم.

ولنستدع شاهدا من أهلها ليقول لنا هذا وهو دي بوشير[1] يقول: "هل يمكن أن نعتبر التوسع الإسلامي ظاهرة استعمارية؟ إن ذلك غير صحيح من حيث الأساس والبنيان؛ فمن حيث الأساس لم تقف وراء التوسع الإسلامي حوافز

[1] نقلا عن محمد عصفور، مقال بجريدة الوفد.

التوسع الاستعماري ولا غاياته؛ فهو لم يكن يرمي إلى إخضاع الشعوب ولا استغلال مصادر الثروة الاقتصادية في البلاد المفتوحة لصالح الفاتحين وحدهم، بل كان يرمي إلى دعوة الشعوب إلى الدين الجديد، هذا إلى جانب أن الفتح الإسلامي كان يستلهم هدفا مزدوجا، فقد كان يرمي إلى غلبة الحق، حق القوة وقوة الحق في وقت واحد معا.

أما المستعمر الأوروبي فلم يكن يبتغي إلا حق القوة، كان الفاتح الإسلامي يشرك أهل الأمصار المفتوحة في الفتح بعد اعتناقهم الدين الجديد فيصبحون بدورهم فاتحين فيحيون حياة جديدة بمعنى الكلمة فيصبحون أكفاء للفاتح يقفون معه على قدم المساواة، وهو أمر لم يفعله المستعمر المسيحي قط، ذلك أنه عندما كان يدخل أهل المستعمرات في ديانته فقد كان يمنحهم مساواة شكلية تقع على الصعيد الروحي في أحسن الأحوال.

أما على المستوى الدنيوي فقد كانت أوروبا على طريق المستعمر هي التي تحتفظ بكل الحقوق، وهي التي تمارس الحكم، أما من حيث البنيان فلم تكن الإمبراطورية الإسلامية وهي ثمرة الفتح تتميز بالقسمات الخاصة التي يتسم بها

الاستعمار، فلقد كان مجرد اعتناق الإسلام كافيـا لأن يتـيح لأي شعب كان أن يشارك في الفتح وفي تصـريف شـئون البلاد.

وما يستدعي النظر في ظاهرة التوسع الإسلامي أنه لـم تتحقق السيطرة في أي لحظة من اللحظات لقوم أو جنس ما، بل كانت سيطرة الدين هي التي تتجاوز الأقوام والأجنـاس، ولذلك لم تكن ثمة عاصمة واحدة يعود التوسع بالمنفعة عليها وحدها، ولم يكن الفاتحون من عرب الجزيرة وحـدهم بـل كانوا في أغلبية الأحيـان مـن أهـل الشـام أو مصـريين أو أندلسيين، فلم تفتح إسبانيا على يد العرب بـل علـى يـد الأندلسيين بعد أن أسلموا، فتغلغل الإسلام في حيـاتهم إلـى أعماق بعيدة بعد أن كان لاختلاطهم بالشاميين والمغاربة أثر كبير، وطارت ثقافتهم الرفيعة فيما وراء الحدود الإسـلامية وساهمت إلى حد كبير في تطور الفكر الأوروبي والمعرفـة الأوربية خلال قرون ما قبل عصر النهضة.

الذين يكرهون الإسلام أو لا يفهمونه هـم فقـط الـذين يحاولون أن يقرنوا الجهاد في الإسلام بـالعنف الأوربـي، ويقولون: هذا مثل ذاك، وإذا كان العنف الأوربي غاية فـي

حد ذاته ووسيلة للسيطرة والقهر والنهب فالجهاد في الإسلام وسيلة تعكس الرغبة فـي القضـاء علـى النهـب والقهـر والسيطرة، أي عكس الأسباب الأوروبية تمامـا، إنـه فـي الحقيقة ثورة من أجل التحرير، تحرير الإنسان في كل مكان من العبودية للبشر إلى العبوديـة لله وحـده، ولـيس كـلام ربعي بن عامر لرستم عن دوافع الفتح والجهـاد إلا تأكيـدا لكون المسلمين الأوائل كانوا يفهمون الجهاد على هذا النحـو أي على نحو التحرر والانعتاق وليس السيطرة والقهر، يقول ربعي بن عامر لرستم: "جئنا لنخرج الناس من عبادة العبـاد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسـلام، ومـن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة" أي جاء المسلمون إلـى فارس لتحرير أهلها من عبادة القياصرة، ومن ظلم الطبقـة الحاكمة ونهبها إلى الحرية والعدل تحت ظلال الإسلام.

وإذا كان مفكرون منصفون من الغرب مثل "دي بوشـير" قد أثبتوا اختلاف الفتح الإسلامي عن التوسع الأوروبي فـي الغايات والأهداف والممارسات فإن الأمر فـي حقيقـة، وإذا ما فهم الجهاد الإسلامي والفتح والغزو في الإسلام في إطار موضوعي يكون تأكيدا جديدا على عالمية الإسلام وإحساسه

بالمسئولية الأخلاقية تجاه البشر جميعا، دفاعا عنهم وتحريرا لهم من الأكاسرة والقياصرة وكل العتاة الظالمين: ﴿ **وما لنَا ألا نُقَاتِلَ فِي سبِيل اللهِ** ﴾[1].

فعلى سبيل المثال فإن الفتح الإسلامي للأندلس كان تحريرا من العبودية، لأن النظام الإقطاعي الذي كان يسود الأندلس قبل الفتح الإسلامي كان يعطي السيد الإقطاعي الحق في التحكم في رقيق الأرض، بيعا وشراء وقتلا وتجويعا كما يريد، فجاء الفتح الإسلامي فحرر هؤلاء وأعطاهم الأرض التي يزرعونها ليحصلوا هم على خيراتها – وليس السيد الإقطاعي – وبذلك حررهم من العبودية والنهب، ولم يكرههم على الدخول في الإسلام، بل ترك ذلك لحرية الاختيار المطلقة.

يقول الله تعالى: ﴿ **وقَاتِلُوهم حتى لاَ تَكُون فِتْنَةٌ ويكُون الدين للهِ فَإِن انْتَهوا فَلاَ عدوان إِلا علَى الظَالِمِين** ﴾[2].

أي جاهدوا حتى لا تستمر فتن إكراه الطغاة للناس على فكر معين وأسلوب معين، وحتى لا تستمر فتن القهر

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٦).

[2] سورة البقرة: الآية (١٩٣).

والاستبداد والظلم والنهب، وحتى لا تستمر فتنة تأليه الحكام لأنفسهم وإرغام الناس على ذلك، أي جاهدوا لتخرجوا الناس من عبادة الناس إلى عبادة الاختيار، قاتلوا فـإن انتهـوا أي كفوا عن القهر والنهب وتأليه أنفسهم وإكراه الناس على دين معين فلا عدوان إلا على الظالمين. أي لا عدوان إلا علـى من يعود إلى الظلم ويحاول ممارسته مرة أخرى.

إن الجهاد في الإسلام وسيلة لتحقيق حرية الدعوة وحرية الاختيار، وسيلة لتحقيق الإنصاف والعدل للنـاس، وتـركهم ليختاروا ما شاءوا من عقيدة بدون ضغوط، وصحيح أنهم في الغالب يختارون الإسلام وذلك يرجع لكـون الإسـلام ديـن الفطرة، والحكام والطغاة يحولون بين الناس وفطرتهم بالظلم الاقتصادي، والاستبداد السياسي، والقهر الطبقي والاجتماعي والعرقي والجنسي وغير ذلك. وواجب ومسئولية الحضـارة الإسلامية هي رفع كل هذه الأشكال من القهر والنهب والظلم والتمييز، والعمل على تحرير الناس، ودعوتهم إلى اختيـار عقيدتهم بكل الحرية، وبدون أي إكراه أو ضغط ﴿ **لاَ إِكْـراه فِي الدين** ﴾ [1] ﴿ **فَمن شَاء فَلْيؤْمِن ومن شَاء فَلْيكْفُر** ﴾[1].

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٥٦)

ومما يؤكد على صلاح وعالمية الحضارة الإسلامية على عكس الحضارة الغربية، أنها حضارة تؤكد علـى الحريـة والعدل واحتـرام الأقليـات والمعـايير غيـر المزدوجـة واللاعنصرية.

ففي إطار العدل كقيمة حضارية إسـلامية ثابتـة نجـده فريضة من الله تعالى، فيأمرنا بالعدل وينهانا عن البغي فـي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَـانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾[2]. والعدالـة ميزان الاجتماع في الإسلام[3] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُـوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**﴾[4] والرسول ﷺ يقول: (عامـل الناس بما تحب أن يعاملوك به) أي أن العدالة مطلوبة للمسلم حتى على المستوى الشخصي، أما على المستوى الاجتماعي

---

(1) سورة الكهف: الأية (٢٩)

(2) سورة النحل: الآية (٩٠)

(3) محمد أبو زهرة ـ المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ـ الدار السعودية، الرياض ١٩٨١

(4) سورة المائدة: الآية (٨)

فالإسلام يعتبر العدالة فريضة في إطـار العدالـة القانونيـة والعدالة داخل المجتمع والعدالة مع المجتمعات الأخرى.

ويرتبط بالعدالة في الإسلام عدم ازدواج المعايير، فالجميع سواسية أمام القانون بصرف النظر عن اللـون أو الجـنس أو العرف أو الديانة، بل حتى المجتمع الإسلامي، والمسلمون مطالبون بالعدل تجاه من يكرهونهم ﴿ **ولاَ يجـرِمنكُم شنَـآن قَومٍ علَى أَلا تَعدِلُوا اعدِلُوا هو أَقْرب لِلتقْـوى**﴾[1] ﴿ **كُونُـوا قَوامِين بِالْقِسطِ شُهداء للهِ ولَو علَى أَنْفُسِـكُم أَوِ الْوالِـدين والأَقْرِبِين** ﴾[2].

وإذا كانت الكراهية ذاتها لا تصلح سببا للظلم، والقرابـة لا تصلح سببا للمجاملة على حساب العدالة، فـإن الوضـع الاجتماعي أيضا ليس سببا للتحايز في العدل: (إنمـا أهلـك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركـوه، وإذا سـرق الضعيف قطعوه، وأيم الله لو أن فاطمة بنتي سرقت لقطعـت يدها).

---

[1] سورة المائدة: الآية (٨)

[2] سورة النساء: الآية (١٣٥)

وأبو بكر الصديق يقول: "القوي منكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف قوي حتى آخذ الحق له".

ويروي التاريخ الإسلامي أن أميرا من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت في عهد "عمر بن الخطاب" فوطئ إزاره شاب من فزارة فلطمه الغساني لطمة جدعت أنفه، فذهب الشاب إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" وشكا إليه، فقال عمر للغساني: له القصاص أو يعفو عنك؛ فقال: كيف وأنا أمير وهو سوقة؟ فقال عمر: لقد سوى الإسلام بينكما فلا تفضل إلا بالتقوى. فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي، فلم يرض إلا بأن يلطمه كما لطمه، وعلم الأمير أن الخليفة عمر سيمكن هذا الأعرابي من القصاص لا محالة، ففر إلى الروم مرتدا عن الإسلام، وما اهتم عمر بذلك فإنه خير للإسلام أن يخرج منه أمير غساني على أن يمارس ازدواج المعايير.

ووصل الأمر إلى أن المسلمين كانوا قد دخلوا بلدا يدعى صغد في إقليم سمرقند، واشتكى أهل هذا البلد إلى الخليفة "عمر بن عبد العزيز" أن القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم قد دخل ديارهم من غير أن يتبع معهم الأسلوب الذي سنه الإسلام في التخيير بين الإسلام أو العهد والجزية أو الحرب،

بل قاتلهم من غير هذا التخيير، وحول الخليفة الأمـر إلـى القاضي فدرس القاضي الموضوع وتبين صـدق الشـكوى، فأمر الجند بالخروج من الديار التي دخلوهـا. ونفـذ الجنـد الأمر، وتركوا مدينة صفد امتثالا للعدالة الإسـلامية التـي لا تعرف ازدواج المعايير.

ووصل هذا الأمر إلى مداه عندما أمر "عمر بن الخطاب" القبطي المصري بضرب ابن حاكم مصر "عمرو بن العاص" قصاصا له عن ضرب القبطي على يده عنـدما سـبقه فـي المنافسة ويقول له: "اضربه كما ضـربك.. اضـرب ابـن الأكرمين"[1].

إذا فالإسلام يعكس العدل كأروع مـا يكـون نصوصـا وممارسة، ويعكس أيضا عدم ازدواج المعايير فـي تطبيـق قيمه، فلا فرق هنا بين حاكم ومحكـوم، أميـر وصـعلوك، أبيض وأسود، مسلم وغير مسلم.

***

---

[1] والرسول ﷺ لا يستنكف أن يضع نفسه موضعا للقصاص وإعطاء الناس حقوقها منه قائلا قبل وفاته: (أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري.. ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي..).

ويعكس الإسلام والحضارة الإسلامية أيضا اللاعنصـرية والمساواة الإنسانية الشاملة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] (ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) (كلكم لآدم وآدم من تراب)، ويقول الرسول ﷺ مؤكدا على هذه المعاني: (إن الله قد أذهب عنكم عصـبية الجاهليـة وتفاخرهـا بالآبـاء والأجداد.. الناس لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي علـى عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى"[2].

ولم يكن مصادفة أن التجربة الإسلامية الأولى قامت على أكتاف رجال كان منهم الكثير من العبيد والمـوالي، أمثـال بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وزيد بن حارثة.. وغيرهم. وكان منهم العلمـاء والقـواد والأمـراء والمقدمون في كل مجال دنيوي أو ديني بلا أيـة حساسـية. ولعل إحدى السمات الهامة للمسلمين والتي ما زالت تحيا في نفوسهم هي هذه الروح اللاعنصرية؛ حيث إن المسلمين حتى الآن لا يعطون لاخـتلاف اللـون أو الجـنس أي اهتمـام ويمارسون اللاعنصرية كسلوك عادي، والدليل على ذلك أن

---

[1] سورة الحجرات: الآية (١٣).

[2] حديث شريف.

أحدا من المسلمين لم يهتم ولم يلتفت – وقطعا لم يـرفض – أن يكون الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي هو الأسـتاذ حامد الفايد الأفريقـي الأسـود. وعلـى مسـتوى الحركـة الإسلامية نجد أن الأمين العام الـذي اختارتـه المنظمـات الشعبية الإسلامية في مؤتمرها العـام المنعقـد بـالخرطوم ١٩٩١ هو الدكتور حسن الترابي وهو أفريقي أسود أيضا.

***

أما التصور الإسلامي والسلوك الحضاري الإسلامي تجاه الأقليات فهو أروع ما يمكـن. يقـول الـدكتور إسـماعيل الفاروقي: لقد بلغ المجتمع الإسلامي حدودا تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين، وقـد مـد المسـلمون تلـك الميزة – حرية الاعتقاد – التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين في القرآن الكريم – حتى شـملت الزرادشـتيين والهندوسيين والبوذيين والمجوس والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها"[١].

[١] إسماعيل الفاروقي – الإسلام بين الديانات السماوية العظيمة.

ويقول فهمي هويدي: "لم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين، بل تعدى إلى قيـام المسلمين بحفظ التراث الحضاري للديانات الأخرى"[1].

ويروي الأمير شكيب أرسلان فـي مقـال لـه بعنـوان "التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي"؟! أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مـع بعـض رجال الدولة الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثماني: "إننا نحن المسـلمين مـن تـرك وعـرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنـا إلـى درجة استئصال شأفة أعـدائنا، ولـو كنـا قـادرين علـى استئصالهم، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين، وأن نجعل بلادننا كلها صافية للإسلام، فما هجس في ضمائرنا خـاطر كهـذا الخاطر أصلا.

وكان إذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقـع للسـلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويواجهـه أمثـال زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة: لـيس

---

[1] فهمي هويدي – مواطنون لا ذميون – دار الشروق.

لك على النصارى واليهود إلا الجزية، وليس لك أن تزيحهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثـالا لشـرع الله الحنيف، فيبقى بين أظهرنا حتى أبعـد القـرى وأصـغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهـم كـانوا – وآخرون – لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. أمـا أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم على من أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقـد كان في إسبانيا ملايين وملايين من المسـلمين، وكـان فـي جنوب فرنسا وشمالي إيطاليا وفي جنوبهـا مئـات الألـوف منهم، ولبثوا في هاتيك الأراضي أعصرا مديدة، وما زلـتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في جميع هذه البلدان شـخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد إسبانيا كلها فلـم أعثـر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم"[1].

أما قيمة الحرية في الإسلام فهي قيمة ثابتة، بل وتـدخل في صميم تصور وسلوك الإسلاميين، ويمكننا اعتبار قيمـة الحرية أهم قيمة إسلامية بعد التوحيـد، ويـأتي علـى رأس المهام التي جاءت من أجلها الرسالات السماوية أو تلك التي

---

[1] شكيب أرسلان – حاضر العالم الإسلامي.

أوجبها الله على المسلمين: تحقيق الحرية ورفع القهر، فحرية الاعتقاد والتفكير مكفولة ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [1] ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [2]، بل من أجل حرية الاعتقاد أوجب الله جهاد المسلمين ضد كل السلطات الظالمة والمستبدة التي لا تحقق للناس حرية التفكير وحرية الاعتقاد وحرية الاختيار.

وحرية التعبير مكفولة: "فها هي امرأة تخطئ عمر في المسجد أمام الناس – وهو الخليفة - فيستجيب لها، ويعترف بخطئه، ولا يحدث للمرأة شيء".

وها هو الرجل المسلم يقول لعمر: لا نسمع ولا نطيع حتى نعرف كيف حصلت على هذا الثوب الطويل دون المسلمين، فلما يقول عمر وهو الخليفة إنه ضم نصيبه إلى نصيب ابنه فكان هذا الثوب الطويل، قال الرجل: الآن نسمع ونطيع.

---

(1) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(2) سورة الكهف: الآية (٢٩).

والقرآن الكريم جعل التفكير فريضة إسلامية، والكثير من آيات القرآن الكريم تدعو إلى التفكير، وعشرات الآيات تنتهي بعبارة أفلا تعقلون، أفلا تتدبرون، أفلا تتفكرون[1].

وإذا كان الإسلام يحرص على حرية العقيدة، وحرية التعبير وحرية إبداء الرأي وحرية معارضة الحكام وجعل أمر الناس شورى بينهم، فإنه أيضا صان الحرية الشخصية للإنسان. فالله تعالى نهى عن التجسس ﴿ **وَلاَ تَجَسَّسُوا** ﴾[2].

والعقيدة الإسلامية تحرم أخذ الناس بالشبهات (ادرءوا الحدود بالشبهات) ولا تقيم وزنا للظن ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[3] ويقول الرسول ﷺ: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا..)[4].

ويقول: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تضايقوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع

---

[1] عباس محمود العقاد – التفكير فريضة إسلامية – دار الهلال – القاهرة.

[2] سورة الحجرات: الآية (١٢)

[3] سورة الحجرات: الآية (١٢)

[4] حديث شريف – فتح الباري.

عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)[1].

وقد نهى كبار الصحابة – رضي الله عنهم – عن التجسس على الناس بهدف اكتشاف الجرائم غير الظاهرة، "فقد قيل لابن مسعود رضي الله عنه: هل لك في الوليد بن عقبة، إنه تقطر لحيته خمرا. قال: قد نهينا عن التجسس فإن يظهر لنا شيء نقم عليه"[2].

والرسول ﷺ نهى عن تجسس الأمير على الرعية فقال: (إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم)[3].

والشريعة الإسلامية تجيز فقأ عين من يتجسس أو يطلع على أسرار الناس الخاصة لقول رسول الله ﷺ: (لو أن امرءا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح)[4].

---

(١) حديث شريف – سنن أبي داود.

(٢) د. محمد رواس – موسوعة فقه عبد الله بن مسعود – مطبعة المدني القاهرة - ١٩٨٤

(٣) جامع الأصول – الجزء الرابع.

(٤) فتح الباري – الجزء ١٢

والقرآن الكريم يؤكد حرمة البيوت وعدم دخولها بغير استئذان:

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم**﴾[1].

ويحكي التاريخ الإسلامي أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – دخل على جماعة تشرب خمرا، فقال: ألم أنهكم عن معاقرة الخمر، فقالوا له: قد نهاك الله عن التجسس فتجسست، ونهاك الله عن الدخول بغير إذن فدخلت. فتركهم عمر بن الخطاب[2].

وحتى احترام طمأنينة الآخرين واجب شرعي: "فلا يحل لمسلم أن يروع مسلما"، "ولا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم"[3].

---

(1) سورة النور: الآيتان (٢٧، ٢٨)

(2) د. محمد أحمد حفنى، د. سامي صالح الوكيل – النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية – دراسة مقارنة – كتاب الأمة رقم ٢٥

(3) رواه الطبراني.

الفصل الخامس

الإســـلام..دين وحضارة

الإسلام هو دين الله الحق ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾[1]، وهو رسالة الله إلى البشر، وهو المنهج الذي اختاره الله تعالى لعباده لإصلاح وعمارة الدنيا والفوز في الآخرة. والإسلام هو الدين الذي نزل على الأنبياء من لدن آدم وحتى محمد ﷺ، الذي اكتمل به الدين والنعمة: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[2].

ولقد اشتمل الإسلام – عندما اكتمل الدين في الرسالة المحمدية – على نظام متكامل لشئون الدنيا والآخرة، للعلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان والإنسان، بل وبين الجماعات البشرية المختلفة بعضها بعضا، ووضع الإسلام القواعد والأحكام لتلك العلاقات جميعا، أي أنه عقيدة وشريعة.

---

(1) سورة آل عمران: الآية (١٩)

(2) سورة المائدة: الآية (٣)

ومع ظهور الرسول عليه الصلاة والسلام والجماعة الإسلامية الأولى وخاصة في المدينة انتشر الإسلام في مساحة جغرافية هائلة تمتد من طنجة حتى جاكرتا، ومن أنقرة إلى جنوب أفريقيا، ومع تطبيق مبادئ وقواعد وأحكام الإسلام فيما بين المسلمين، وفي داخل الأمة الإسلامية وبين غيرها من الأمم نشأت حضارة وثقافة تعتمد في معطياتها على المبادئ الإسلامية هي الحضارة الإسلامية، وتميزت هذه الحضارة بمجموعة من القيم الحضارية هي: العدل والحرية والتوحيد واللا عنصرية، وظلت هذه القيم موجودة في أحشاء الأمة الإسلامية صعودا وهبوطا، وصحيح أنه اعترى مسار الحضارة الإسلامية العديد من الأحداث؛ ففي بعض الأحيان كان السلوك يماثل القيم، وفي بعض الأحيان الأخرى كان هناك انحراف عن تلك القيم، إلا أنه في كل الأحوال كانت هناك روح حضارية قوية وثقافة إسلامية ووجدان متميز لتلك الأمة.

بل إن الإسلام الذي يمثل الدين والحضارة بالنسبة للمسلم، أصبح يمثل الحضارة والثقافة حتى بالنسبة لغير المسلمين داخل الأمة الإسلامية، ولعل المفكر والسياسي المسيحي

المصري مكرم عبيد عبر عن هذا الأمر قـائلا: "إن أقبـاط مصر مسيحيون دينا مسلمون وطنا"[1].

إذا فقد أصبح الإسلام دينا وحضارة في نفـس الوقـت، وينتمي إلى منظومته الحضارية المسلمون وغير المسـلمين في رقعة هائلة من الأرض وعلى امتـداد مسـاحة زمنيـة كبيرة، بل واستطاعت الحضارة الإسـلامية أن تـذيب فـي داخلها الكثير من الحضارات مثـل: الفرعونيـة والفنيقيـة والآشورية والفارسية والهنديـة والصـينية وغيرهـا. وأن تخوض صراعا حضاريا مازال مسـتمرا مـع الحضـارة الأوروبية.

***

وإذا تتبعنا في شيء من الإيجاز التعريفات المختلفة لكلمة الحضارة في علم الاجتماع أو غيره مـن العلـوم، نجـد أن الإسلام يمثل حضارة متكاملة، وتنطبق عليه تلك التعريفـات سواء منها ما كان تعريفا عربيا أو أوروبيا، قديما أو حديثا.

---

(1) طارق البشري ـ المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية ـ دار الشروق، القاهرة ـ ١٩٨٤.

الحضارة والثقافة والمدنية ثلاثة مصطلحات متداخلة – وليس هنا بالطبع مجال للخوض في اختلافات العلماء حولها، وعلى كل حال فأصل الحضارة في اللغة العربية هو: من الفعل "حضر" على وزن فعل، يقال "حضر الغائب حضورا" قدم من غيبته، و "حضرت الصلاة" فهي حاضرة. والأصل حضر وقت الصلاة والحضر بفتحتين خلاف البدو، والنسبة إليه هي "حضري"، أي أقام بالحضر. والحضارة بفتح الحاء وكسرها "سكون الحضر" والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[١].

وكلمة المدنية – تشير عند كثير من الباحثين إلى معنى مرادف للحضارة، وتشير في اللغة أيضا إلى ارتباط مكاني، "فالمدينة" وزنها فعيلة، والجمع "مدن ومدائن" ويقال مدن بالمكان أقام به[٢].

أما الثقافة في اللغة هي التهذيب والصقل والحذق، يقال

---

(١) المصباح المنير ولسان العرب، مادة – حضر.

(٢) د. توفيق يوسف الواعي – الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية – دار الوفاء – المنصورة – ١٩٨٨

ثقف الشيء ثقافة وثقوفه أي خدمه، ويقال ثقف الـرمح، أي قومه وسواه وثقفته بالتثقيف أي أقمت المعوج منه، ورجـل ثقف أي حاذق فهم[1].

وإذا جئنا إلى "التعريف الاصطلاحي" للحضارة، نجـد أن ابن خلدون يعرف الحضارة بقوله: "هي التفنن في التـرف، واستجادة أحواله، والكلاف بالصنائع التي تؤنق من أصـنافه وسائر فنونه من الصـنائع المهنيـة للمطـابخ أو الملابـس أو المباني أو الفرش أو الأواني ولسائر أحوال المنزل ويلزم لهذا التأنق صناعات كثيرة"[2].

- ويعرفها سيد قطب فيقول: "هي ما تعطيه البشـرية مـن تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيـادة البشـرية وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيـين، النمـو والترقـي للعنصر الإنساني وللقيم الإنسانية وللحياة الإنسانية"[3].
- أما الأستاذ مالك بن نبي فيعرف الحضارة بقوله: "هـي

---

(1) المصباح المنير ولسان العرب، مادة – ثقف.

(2) مقدمة ابن خلدون – تعليق الدكتور عبد الواحد وافي – لجنة البيان العربي.

(3) سيد قطب – المستقبل لهذا الدين – دار الشروق – القاهرة – ١٩٧٥

البحث الفكري والبحث الروحي"[1].

- ويعرفها الأستاذ أبو الأعلى المودودي بقوله: "هي تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها في نظام اجتماعي يقود الإنسان إلى الرقي والإخاء والأمان"[2].
- أما الدكتور عفت الشرقاوي فيعرف الحضارة بقوله: "هي التراث التاريخي المتمثل في العقائد والقيم التـي ترسـم للحياة غاية مثلى ومغزى روحيا عميقـا متعاليـا علـى متناقضات الزمان والمكان"[3].
- أما الأستاذ يوسف الحوراني فيعرف الحضـارة بقولـه: "هي عقائد دينية وازدهار اقتصادي إنجـازات إنشـائية وفنية وأنظمة تشريعية وتضامن اجتماعي وفـق تقاليـد وعادات موحدة أو قوى حربية"(٤).

---

(١) مالك بن نبي شروط النهضة – دار الفكر – دمشق

(٢) أبو الأعلى المودودي – الحضارة الإسلامية.

(٣) د. عفت الشرقاوي – فلسفة الحضارة الإسلامية – دار النهضة العربية – بيروت.

(٤) يوسف الحوراني – الإنسان والحضارة – المكتبة المصرية – بيروت.

- ويعرفها الأستاذ محمد محمد حسين بأنها: "كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه عقلا وخلقا مادة وروحا – دينا ودنيا"[1].
- أما الدكتور حسين مؤنس فيعرف الحضارة بقوله: "هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء كان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة، مقصودا أم غير مقصود سواء كانت الثمرة مادية أم معنوية"[2].
- أما الدكتور أحمد شلبي فيعرفها بقوله: "هي الإنجازات التي تحقق للبشرية أو حققتها البشرية من خلق وسلوك ومعارف"[3].
- وإذا تركنا علماء الاجتماع العرب، وتتبعنا تعريف الحضارة عند علماء الاجتماع الأجانب، نجد أن ول

---

(1) د. محمد محمد حسين – الإسلام والحضارة الغربية – المكتب الإسلامي – بيروت.

(2) د. حسين مؤنس – الحضارة

(3) د. أحمد شلبي – الحضارة الإسلامية – دار النهضة المصرية – القاهرة.

ديورانت يعرف الحضارة: "بأنها نظـام اجتمـاعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقـافي بعناصـر أربعة هي: الموارد الاقتصادية، الـنظم السياسـية، العقائد الخلقية، متابعة العلوم والفنون"[1].

- ويعرفها العالم الإنجليزي تيولر بقوله: "هـي ذلـك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفنون والآداب والقوانين والعادات وجميع القدرات والتقاليد الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضـوا فـي المجتمع"[2].
- أما الدكتور رالف لنتـون فيعرفهـا بقولـه: "هـي مجموعة منظمة من الاستجابات التي تعلمها الأفراد وأصبحت من مميزات المجتمع"[3].

---

(1) ول ديورانت – نشأة الحضارة – تعريب د. زكي نجيب – لجنة التأليف والترجمة.

(2) نقلا عن د. توفيق الواعي – الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية – مرجع سابق.

(3) رالف لنتون – شجرة الحضارة – ترجمة أحمد فخري – الأنجلو المصرية – القاهرة.

- ويعرفها الدكتور ألكسيس كاريل بقوله: "الحضارة هي وجوب أن نتبع الأبحاث الفعلية والروحية والعلوم الخادمة لسعادة الإنسان النفسية والخلقية والإنسانية"[١].

- أما الدكتور غوستاف لوبون فيعرف الحضارة بقوله: "هي نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات وتغير مشاعر الإنسان إلى الأفضل"[٢].

- ويعرفها كلود دالماس بقوله: "هي تربية الضمير واستعمال الثقافة والعقل في البحث عن الأفضل"[٣].

***

ولا شك أن كل هذه التعريفات تؤكد حقيقة أن الإسلام حضارة بما أفرزه من قيم روحية وعقائد، وبما أفرزه من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية، وبما أفرزه من نمط في الأخلاق والسلوك والتربية وشكل العمران والبناء وآداب الملبس والمأكل والمسكن وغيرها من السمات التي صبغت

---

[١] نقلا عن د. يوسف الواعي – الحضارة الإسلامية – مرجع سابق.

[٢] نقلا عن د. يوسف الواعي – الحضارة الإسلامية – مرجع سابق.

[٣] نقلا عن د. يوسف الواعي – الحضارة الإسلامية – مرجع سابق.

الحياة في رقعة جغرافية واسعة، وفي مدى زمنـي طويـل، ومازال هذه الحضارة متواصلة برغم حالة الانحطاط الـذي يعانيه العالم الإسلامي.

والتآمر الأوروبي المستمر عليها ما هو إلا تأكيـد لهـذه الحقيقة، ولـيس تصـاعد حركـات الصـحوة الإسـلامية، والمشاعر الوحدوية الإسلامية التي ظهرت فـي التضـامن الإسلامي مع البوسنة والهرسك وقبل ذلك مـع أفغانسـتان إلا تأكيدا أيضا لهذه الحقيقة: الإسلام دين وحضارة.

الفصل السادس

هــل انقطــع التواصل الحضاري الإسلامي؟

التواصل الحضاري حقيقة ملموسة، سواء على مستوى دول نشأت أو ثورات اندلعت أو حركات تمارس النضال أو سلوك شعبي بسيط، صغير أو كبير.

هذا عن الواقع، أما عن الإيمان فإننا نؤمن أن الإسلام لا ينتهي، لأنه رسالة الله الخالدة ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [1] وبالتالي لا يعتريه ما يعتري الحضارات من موت أو اندثار.

أمامنا في هذا الصدد شبهتان – الشبهة الأولى – هي المقولة التي يروجها بعض العملاء في بلادنا والتي تقول: "إن الإسلام مجرد دين وليس حضارة"، ويقصدون بذلك تفسير الإسلام تفسيرا كنسيا، بمعنى قصره على الجوانب التعبدية وعزله عن محيط الحياة.

---

[1] سورة التوبة: الآية (٣٣).

وهم بهذا يريدون تمكين الاستعمار منا، والقضاء على وجودنا المتميز في هذه المرحلة، وإخضاعنا للحضارة الغربية، ثم في فترة لاحقة القضاء على الجوانب التعبدية في الإسلام ذاتها. إنهم هنا يدعوننا إلى الاندماج في حضارة المستعمر أي الخضوع له.

والشبهة الثانية – هي المقولة التي يروجها البعض الآخر والتي تقول: "إن الإسلام دين وحضارة؛ ولكن هذا كان زمانا وانقضى؛ لأن الحضارة الإسلامية قد اعتراها ما اعترى غيرها من الحضارات من السقوط والاندثار، وإنه لا سبيل لاستعادة هذه الحضارة، ويجب التسليم بذلك والاندماج في الحضارة الوحيدة الباقية وهي الحضارة الغربية".

ويستهدف هؤلاء نفس الأهداف التي يستهدفها أصحاب الشبهة الأولى.

وإذا كانت كل التعريفات العربية والأجنبية وكل الدراسات الخاصة بعلم الحضارات وعلوم الاجتماع عموما قد أجمعت على أن الإسلام دين وحضارة وتعاملت مع الأمة الإسلامية على هذا الأساس فهذا يؤكد على أن المقولة الثانية هي

الأخطر، خاصة أن هناك معطيات موجودة بالفعل في الواقع الإسلامي قد تستخدم لترويج تلك المقولة.

فهناك التجزئة وهناك الضعف، بل هناك التناحر بين الأقطار الإسلامية، وهناك الغياب الجزئي أو الكامل للشريعة الإسلامية، وهناك أنظمة حكم تضطهد الدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية، وهناك مروجون أقوياء للقيم الحضارية الغربية، والعالم الإسلامي بأسره خاضع أو شبه خاضع عسكريا وسياسيا واقتصاديا للاستعمار الغربي، وهناك غزو ثقافي بشع وتبشير وكيان يهودي مزروع في قلب العالم الإسلامي.

ولكن كل هذا في نظرنا قشرة خارجية يمثلها تحالف بعض الحكومات والعلمانيين وعملاء الاستعمار، أما الجسم الإسلامي برغم كل ما يعتريه من أمراض فما زال سليما يناضل من أجل استرداد عافيته، وهذا النضال الذي يمارسه الجسم الإسلامي يؤكد على استمرارية الحضارة الإسلامية.

المسألة هي أن المنحنى الحضاري الإسلامي، صعد ثم ثبت، ثم بدأ في الهبوط لكنه لم يصل إلى الانهيار، وما زال

يناضل لوقف هذا الهبوط لتحقيق الثبات ثم الصعود مرة أخرى إن شاء الله.

وإذا تعمقنا قليلا داخل ذلك الجسد، نجد أن القيمة الحضارية الإسلامية مازالت تعمل بقوة داخل ذلك الجسد، فهناك صحوة إسلامية لا تخطئها العين، وهناك رفض شعبي مستمر للخضوع للغرب، وهناك مطالبة مستمرة بتطبيق الشريعة الإسلامية حتى ولو كان الثمن الشنق أو السجن، وهناك شعور وحدوي فياض وغامر داخل الشعوب الإسلامية، نعم هناك الشعور بوحدة الأمة وقد تمثل ذلك في مظاهر كثيرة، فالذين انخرطوا في سلك الجهاد الأفغاني من مختلف الأقطار الإسلامية وكان منهم العربي والتركي والإندونيسي والباكستاني بل وأحيانا المسلم الأوروبي والأميركي يؤكد على حقيقة وحدة الشعور، فما الذي دفع الأفريقي الأسود إلى الذهاب إلى أفغانستان للجهاد بالدم من أجل الإسلام.

وما الذي يجعل الطفل الصغير يتبرع بمصروفه اليومي من أجل المجاهدين؟ أليس هو الشعور الإسلامي، فكيف نتحدث عن هذا الشعور باعتباره قد مات؟! وهذا التضامن

الواسع والاهتمام غير العادي لدى جميع مسلمي الأرض بما يحدث للمسلمين في البوسنة والهرسك. بل لماذا هذا التعصب الأوروبي ومحاولات التطهير العرقي للقضاء على الإسلام في أوروبا متمثلا في البوسنة والهرسك؟ لماذا هذا إذا كان التواصل الحضاري الإسلامي قد انتهى؟

إن تاريخ حركات المقاومة في العالم الإسلامي ضد الاستعمار يؤكد خروجها كلها من مشكاة الإسلام، واعتمادها على التحريض الإسلامي لتحريك الجماهير، والرموز كلها إسلامية: المقراني والحداد وعبد القادر الجزائري وابن باديس في الجزائر، وعبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي في المغرب وعبد العزيز الغالبي في تونس وعمر المختار في ليبيا وعمر مكرم والأفغاني والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا في مصر والثورة المهدية في السودان وعز الدين القسام في فلسطين والأمر نفسه في كل مكان في سوريا والعراق ولبنان وإيران وأفريقيا وتركيا وإندونيسيا والهند وباكستان وأفغانستان.. إلخ.

بل إن دولا نشأت من خلال التواصل الإسلامي – العربية السعودية، باكستان – وثورات اندلعت باسم الإسلام الثورة

الإيرانية وثورة الإنقاذ في السودان وممالك ظهرت في بداية هذا القرن "الدولة الصكوتية في أفريقيـا مـثلا" وحركـات مجاهدة في أفغانستان، وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، بل واختيارات جماهيرية في الانتخابات، انتخابات الجزائـر مثلا، وفي كل مكان حركات إسلامية قوية، وتحظى بالـدعم الشعبي: مصر وتركيا وتونس والمغـرب والأردن والـيمن وغيرها.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور حسين مؤنس:

"إذا فحضارة الإسلام لا يعتريها ما يعتري غيرهـا مـن كوارث الحضارات وإذا فهي مستثناة من حركات التـاريخ، لان أساسها ليس عنصر بشريا يناله الضعف والبلى، ولكـن أساسها العقيدة وهي لا تزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال، وأداتها هي اللغة العربية، لغة القـرآن، وبفضـله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضـياع وبفضـل الإسـلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حية، لان العقيـدة لا تبلـى ما دام هناك من يؤمن بها، وما دامت العقيدة حية في عـالم الإسلام فاللغة العربية حية، أي أن عنصري العقيدة الإسلامية

الأساسيين باقيان لا ينال منهما كر الغـزاة ومـر العشـي، وتعاقب الأجناس وتغير الظروف"[1].

ويقول الدكتور توفيق الواعي:

"إن الحضارة الإسلامية فريدة في ثقافتها فريدة في منهجها وقوتها وصلابتها ولا يعتريها البلى لأنها وحي الله وليسـت صناعة بشرية ولأنها المثل الكامـل الـذي لـن تسـتطيعه البشـرية، ولأنهـا رسـالة الفطـرة، والفطـرة لا تتغيـر ولا تتبدل"[2].

ويقول الدكتور محمد فتحي عثمان: "القيمة الحضارية في الإسلام كفيلة دوما بتجدد الإثمار والعطاء، ما وجدت بذورها التربة الطيبة والمناخ الملائم – القلـوب والعقـول بالنسـبة للأفراد والجماعات – وما أتيح لطاقتها الكامنة سبل الانطلاق فتبدو ثمارها ويشع نورها وحرارتها فـي مختلـف مناشـط الإنسان"[3].

---

(1) د. حسين مؤنس – الحضارة – عالم المعرفة – الكويت.

(2) د. توفيق الواعي – مرجع سابق.

(3) د. محمد فتحي عثمان – القيم الحضارية في رسالة الإسلام – الدار السعودية للنشر والتوزيع – الرياض – ١٩٨٢.

ويعترف الكثير من الأوروبيين بقوة الحضارة الإسلامية واستمراريتها، فيقول العلامة شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧: "إن البشرية تفخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة"[١].

ويقول الفليسوف الإنجليزي برنارد شو:

"لقد كان دين محمد موضع تقدير سام، لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، إنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة، وأرى واجبا أن يدعى محمد ﷺ منقذ البشرية، وإن رجلا على شاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث فسوف ينجح في حل مشكلاته"[٢].

ويقول باول شميتز:

"إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوربا وهتاف يجوب آفاقها، يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبي لمواجهة

---

(١) نقلا عن معالم الحضارة – عبد الله علوان.

(٢) نقلا عن ثورة الإسلام لأبي شادي.

هذا العملاق الذي يصحو وينفض النوم من عينيه"[١].

ويقول أيضا:

"إن الإسلام قوة حيوية وموجودة لأنها قائمة على أسـس لا تتوفر في غيرها من تيارات القوى العالمية"[٢].

ويقول المفكر الإنجليزي هيلد بلوك:

"لا يساورني أدنى شك أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل بـاهر فحسـب بـل ستكون خطرا على أعدائه"[٣].

ويقول لورانس براون:

"الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته علـى الانتشار وفي حيويته المذهلة"[٤].

---

[١] جلال العالم – قادة الغرب يقولون – المختار الإسلامي – القاهرة – ١٩٧٩.

[٢] نفس المصدر السابق.

[٣] نفس المصدر السابق.

[٤] جلال العالم – قادة الغرب يقولون – المختار الإسلامي – القاهرة – ١٩٧٩.

ويقول الرئيس الأميركـي ريتشـارد نيكسـون يحـذر المراقبين: "إن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبولتيكية متطرفة وإنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المادية المتاحة سـوف يشكل المسلمون قوة هائلة ومخاطر كبيرة"[١].

(١) ريتشارد نيكسون – الفرصة السانحة – ترجمة أحمد صدقي مراد – دار الهلال – القاهرة ١٩٩٢.

بشريات من القرآن والسنة

أثبتنا من خلال الواقع، وأقـوال البـاحثين، واعترافـات الأجانب أن الإسلام دين وحضارة، وأنه متواصل ولم ينقطع، والآن نؤكد من خلال البشريات التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن المستقبل ذاته للإسلام إن شاء الله تعالى – يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحـق ليظهـره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [1].

ويقول أيضا: **﴿ يريدون أن يطفئوا نـور الله بـأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾**[2].

ولا شك أن هاتين الآيتين تخصان المستقبل، حيـث إنـه حتى الآن ما زالت هناك أديان أخرى كاليهودية والنصرانية والهندوكية وغيرها، في أجزاء كبيرة من العـالم، وسـوف يظهر الله الإسلام عليها كلها ويتم نوره، ولا نشك لحظة في

---

[1] سورة التوبة: الآية(٣٣)

[2] سورة التوبة: الآية (٣٢)

صدق هذه النبوءة القرآنية، لأنها من عند الله تعـالى العلـيم الخبير ونؤمن بأن الإسلام سيسود وتنتهي كل هذه الأديان.

وفي السنة النبوية المطهرة يقول الرسول ﷺ:

(إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها)[١].

ويقول أيضا: (ليبلغن هذا الأمـر مـا بلـغ الليـل والنهـار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عز يعز الله به الإسلام وذل يذل به الكفر)[٢].

ويبشرنا الرسول ﷺ بفتح روما عاصمة إيطاليا حاليا، عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمـرو بـن العـاص وسـئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله ﷺ فكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول ﷺ: (مدينة هرقل تفتح أولا)[٣].

---

[١] رواه مسلم والترمذي وصححه، وابن ماجد وأحمد.

[٢] رواه ابن ماجد في صحيحه وأبو عربة في المنتقي وصححه الألباني في تحذير الساجد.

[٣] نقلا عن د. توفيق الواعي – مرجع سابق.

وكان الرسول ﷺ قد بشر بفـتح حضـرموت وصـنعاء والقسطنطينية وغيرها وقد تحققت هذه البشريات، إلا أننا قد ركزنا على البشريات التي لم تتحقق بعد وذلـك لتأكيـد أن المستقبل للإسلام، وأننا سنفتح إن شـاء الله العـالم بأسـره ونخضعه للإسلام رغم سوء الحاضر ويأسه.

ولعل حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه:

(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكـون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ثـم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهـاج النبوة ثم سكت)[١].

ولعل هذا الحديث يؤكد أننا بانتظار خلافة أخـرى علـى نهج النبوة إن شاء الله تعالى.

---

[١] رواه أحمد والحافظ العراقي وقال هذا حديث صحيح.

وهناك النبوة القرآنية، التي تحقق جزء منها ولم يتحقق الجزء الثاني، وسوف يتحقق إن شاء الله تعالى، وهي تخص بني إسرائيل يقول الله تعالى:

﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** ﴾[1].

ولا شك أن قيام دولة إسرائيل واحتلالها للمسجد الأقصى والقدس يشكل جزءا من هذه النبوءة القرآنية وسوف يشهد المستقبل إن شاء الله، دخول المسلمين إلى المسجد مرة أخرى وتحرير فلسطين بالكامل من هؤلاء اليهود.

---

[1] سورة الإسراء: الآيات (٤ – ٨)

وفي الحديث الشريف يقول الرسولﷺ:

(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعالى فاقتله، إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود).

وهذه كلها بشريات على اقتراب النصر الإسلامي على اليهود وحتميته، وهي بالتالي تدخل ضمن بشريات السيادة الحضارية الإسلامية على العالم، والتي تحدثت عنها آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

الفصل السابع

المستقبل للإسلام

مع التقدم الهائل في وسائل الاتصال والمواصلات، وبعـد أن أصبح العالم بمثابة قرية إلكترونيـة صـغيرة، تولـدت مبررات وضروريات للحديث عن مصير إنسـاني واحـد، وعن حتمية وجود معايير دولية واحدة، أو ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

فسرعان ما أدرك الغرب ضرورة التواجد، للتأهل لقيـادة العالم، بعد عصور مظلمة عاشها في عهد الكنيسة، وهنا تقدم الغرب وعملاؤه بالتبشير بأن الحضـارة الغربيـة بقيمهـا وخصائصها هي هذا النظام العالمي الجديد، على أن تكـون أميركا هي القائد في هذا النظام العالمي الجديد، وبالطبع فإن هناك دعما إعلاميا وسياسيا وعسكريا واقتصـاديا يريـد أن يفرض هذه المقولة.

وإذا كنا نقبل وندعو إلى المشاركة الإنسانية الشاملة، لأن العالم أصبح شديد الترابط فإننا لا نجـد أن هنـاك ارتباطـا

شرطيا بين ذلك وبين إخضاع هذا العالم للمنظومـة القيميـة للحضارة الغربية، وأمامنا في هذا الصدد عدة مسائل.

أولها: أن هناك رأيا قويا لدي مفكرين وعلماء يقول بـأن الحضارة الغربية في سبيلها إلى الزوال والانهيار، وأنهـا إذا لم تزل فستشكل خطرا ماحقا على مستقبل الحيـاة البشـرية على الأرض، حيث إنها حضارة غير مسئولة، وتعلى قيمـة المنفعة اللاأخلاقية.

ثانيها: أن هناك من يدعو إلى الاندماج الحضـاري بـين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وهي دعـوة غيـر علمية بل ومشبوهة لأسباب كثيرة.

ثالثها: أن الحضارة التي ينبغي لها أن تسود العالم لا بـد أن تكون عالمية المعايير. وهذا لا ينطبق علـى الحضـارة الغربية حيث إنها عنصرية في جوهرها، بل ينطبق فقط على الحضارة الإسلامية، وبالتالي فليس هناك بديل عالمي صالح إلا الإسلام.

وفي إطار المستقبل القائم للحضـارة الغربيـة - يقـول المفكر الشاعر محمد إقبال:

"إن أوروبا تنتحر والروح تموت عطشـا فـي سـرابها الخادع. فيها حضارة نعم، ولكنها حضارة تحتضر، وإن لـم تمت حتف نفسها فلسوف تنتحر غدا وتـذهب؛ لأن أسـاس الحضارة منهار، ولا يحتمل أية صدمة، وأنت أيهـا المسـلم فارس الأمل والخلاص والمستقبل"[1].

ويعلـن العـالم الروسـي "تروجـا نوسـكى" إفـلاس الأيديولوجيات الغربية في قولـه: "إن الثـورتين الفرنسـية والشيوعية قد فشلتا، وإن العالم في حاجة إلى ثـورة قادمـة تستطيع أن تصحح من مسارات الحركة الإنسانية، وإن هـذه الثورة لن تأتي إلا من العالم الإسلامي"[2].

وتنبأ كل من "شبيلنجر" "وأرنولد توينبي" بقـرب انهيـار الحضارة الغربية، وكذلك أليستر كلوك الذي أشار إلى ظهور قرينتين على اقتراب النهاية وهما: "التحلل من كافـة القـيم

---

[1] أبو الحسن الندوي – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – دار القلم الكويت.

[2] نقلا عن د. عبد الودود شلبي – عرب ومسلمون للبيع – المختار الإسلامي – القاهرة ١٩٩٢.

وعدم تمكن القانون والمحاكم في الغرب مـن كـبح جمـاح الانحدار السريع للسلوك العام والقيم"[1].

ويقول ألبرت شفاتيرز: "إن الحضارة الأوروبية المعاصرة تعاني من أعراض التحلل والانهيار"[2].

ويقول ألكسيس كاريل: "إن الحضارة الغربية تجد نفسـها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقة إلا أنها غير صالحة بالنسبة لنـا ولحجمنـا وشكلنا"[3].

ويقول "بيتريم سوركن" رئيس قسـم الاجتمـاع بجامعـة هارفارد: "أزمة الثقافة الغربية الراهنة سببها انحلال الثقافـة الغربية الحسية الخالصة، وقد سادت هذه الثقافة قرونا عـدة، وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحي الحياة، فهي حينما

---

(1) نقلا عن نفس المرجع السابق.

(2) نقلا عن د. توفيق الواعي - الحضارة الإسلامية – دار الوفاء – القاهرة ١٩٨٨

(3) كاريل – الإنسان ذلك المجهول – تعريب شفيق أسعد – مؤسسة المعارف – بيروت.

يدركها الخلل، ويدب فيها التسمم، يسري الداء إلى مختلـف أجزائها، وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة"[1].

ويضيف: "إن أميركا سائرة بسرعة إلى كارثة فهي تتجه نفس الاتجاه الذي أدى إلى سقوط الإمبراطورية الإغريقيـة، ثم الإمبراطورية الرومانية في الزمان القديم"[2].

ويقول جون كينيدي سنة ١٩٦٢ محذرا:

"إن مستقبل أميركا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، لأن الشهوات التي غرقوا فيهـا أفسـدت ليـاقتهم الطبيـة والنفسية"[3].

وإذا كانت أميركا تمثل أقوى مراحل الحضـارة الغربيـة فإنها تعاني من السير في اتجاه الانهيار السريع، ومع نهايـة الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشـيوعية،

---

(1) نقلا عن د. توفيق الواعي – مرجع سابق.

(2) نفس المرجع السابق.

(3) نفس المرجع السابق.

وجدنا مفكرين أميركيين وغيرهم من الأجناس يحذرون مـن مصير قاتم بالنسبة لأميركا.

يقول المفكر الأميركي "أنـدرو هـاكر": "إن الولايـات المتحدة في طريقها للانقسام والتفتت وعلى نحو مفاجئ غير متوقع"[1].

ويقول بول بروكجمان:

"إننا نعيش في عصر التوقعات المتلاشية، وفـي الوقـت الذي ينفق فيه الشعب الأميركي سبعة مليارات دولار سـنويا على إطعام الكلاب وعلاجهم يوجـد ٣٧ مليـون أميركـي لا يتمتعون بنظام التأمين الصحي، وإن ربع الأطفال يعيشون تحت مستوى الفقر، وإن ٢ مليون أميركي يتركون مدارسهم الابتدائية قبل تعلم القراءة والكتابة سنويا "[2].

وفي الإحصائيات [3] التي تنشر في الصحف والمجـلات الأميركية تقول مجلة التايم:

---

[1] نقلا عن د. عبد الودود شلبي – عرب ومسلمون للبيع – المختار الإسلامي – القاهرة ١٩٩٢.

[2] نفس المرجع السابق.

[3] نفس المرجع السابق.

"قبل نهاية هذا القرن سـيكون فـي الولايـات المتحـدة الأمريكية عشرة ملايين مواطن مصابون بالإيدز، وإنه فـي كل عام تحمل أكثر من مليون بنت أميركية مراهقة بمعـدل أربعة من كل خمسة منهن تحمل سفاحا، وإنـه هنـاك ١٣ مليون طفل أميركي بدون آباء، وإن عدد المصابين بالشـذوذ الجنسي بين أفراد القوات المسلحة الأميركية يصل إلى ٢٠٠ ألف، وإنه تقع في الولايات المتحدة جريمة في كـل خمـس ثوان، وإنه لا أحد يخرج من بيته في بعض المدن الأميركية بعد غروب الشمس خوفا من السـرقة والقتـل، وإن الأمـر وصل إلى الكنيسة نفسها؛ حيث إن عددا كبيرا من الكرادلـة يمارسون الشذوذ الجنسي فيما بينهم بل وتبارك الكنيسة زواج الشواذ!".

ويقول المؤرخ البريطاني "بول كيندي": "إن أميركا فـي حالة انهيار وإنها لم تعد قادرة على فعل شيء للحفاظ علـى كيانها وبين لحظة وأخرى ستأتي الكارثة"[١].

***

---

[١] نفس المرجع السابق.

ولذا فإن الانهيار هو المصير المنتظر للحضارة الغربية بحكم تركيبتها غير العالمية، وبحكم أحوالها سوف تنهار. ولأنها أصلا لا تصلح لتكون المعيار القيمي العالمي، وإلى أن يحدث هذا الانهيار فإن علينا أن نصمد أولا أمامها، ولا نقبل المقولة الخائنة التي تدعونا إلى الاندماج في حضارة الغرب، لأن هذا معناه ضياعنا وخضوعنا، وخيانة في نفس الوقت لمستقبل البشرية لأن الحضارة الغربية سوف تفسد العالم، وتسبب له كارثة.

ويبقى أن نناقش المقولة التي تقول: إن الحضارات تتفاعل مع بعضها البعض وإن الحضارة الغربية ليست غربية فقط بل إنسانية أي أنها استفادت من كل الحضارات التي سبقتها، وتفاعلت وتزاوجت معها، وخرجت في النهاية لتكون حضارة الإنسانية كلها، وهذا الرأي خطير وبراق، ولكنه خطأ، وينبغي هنا أن نفرق بين أمرين: أحدهما: التفاعل والتزاوج، والثاني: التعاون، فالتفاعل والتزاوج لا يتمان إلا بين حضارات أو إبداعات حضارية من عائلة واحدة مثل: الحضارة الإغريقية والرومانية واليونانية والجرمانية والسكسونية.. وهكذا.

وهذا التفاعل والتزاوج لا يمكن أن يتم بـين حضـارات وعائلات مختلفة نوعيا وكميا. فلا يمكن مثلا الحـديث عـن تفاعل وتزاوج حضاري بين حضارة تقـوم علـى الوثنيـة كالحضارة الغربية وبين أخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الإسلامية، والأمر هنا أشبه بعمليات التطعيم التي تـتم فـي النباتات، ولكي تنجح عملية التطعيم هذه فلا بد أن تكون بين أنواع معينة من النباتات، تنتمي إلى عائلة واحدة أو عائلات متقاربة، ولكن هذا التطعيم يفشل تماما إذا ما تم بين شجرتين لا ينتميان إلى عائلة واحدة أو عائلات نباتية متقاربة.

وفي الحقيقة فإن إمكانية التزاوج والتفاعل بين الحضـارة الإسلامية والحضارة الغربية أمر مستحيل، لأن أية دراسـة متعمقة للأساسات التي قامت عليها كل من عائلة الحضـارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوروبية لا تترك مجالا للشـك في أن لكل منهما طريقا مختلفا وسياقا خاصـا، لهـذا فـإن الحديث عن التواصل الحضـاري أو التفاعـل الحضـاري أو التزاوج الحضاري يستهدف – في الحقيقـة – الإلحـاق الحضاري والتبعية الحضارية باعتباره جزءا أساسـيا فـي

عملية الإلحاق الاقتصادي والسياسـي والثقـافي والسـيطرة العسكرية.

وينبغي في هذا الصدد أن نلتفت إلى مجموعة من النقاط، فالداعون إلى الاندماج في الحضارة الغربية ينسـون حقيقـة أساسية، وهي أن الحضارة الغربية نفسها لن تقبل أن نندمج بها، وأن نصبح جزءا منها يستمتع بنفس الحقوق الحضارية مع الأوروبيين على قدم المساواة، لأنهم فقط يعنون بالاندماج أن نظل خاضعين وتابعين، وأن نظـل مجـالا للنهـب دون مقاومة، ففرنسا مثلا التي أدمجت الجزائـر إبـان احتلالهـا وجعلتها جزءا من فرنسا، لم تقبل أن تعطي الجنسية الفرنسية للجزائريين مثلا، ولم تقبل أن يكون لهم نفس حقوق الانتخاب التي للفرنسي.

والداعون إلى التزاوج والتفاعل مع الحضـارة الغربيـة يتناسون الظروف المشبوهة التي ظهرت فيهـا مثـل هـذه الدعوة، فهذا الموضوع لم يطرق بعيـدا عـن غايـات ذات علاقة بالصراع الدائر بين القوى الاسـتعمارية والشـعوب المقهورة والمستضعفة، فعندما طرح منظرو أوروبـا هـذا الموضوع كانوا في أغلبهم يرمون إلـى سـيادة الحضـارة

الأوروبية على العالم بكل ما تحمل من فلسفات وقيم ومعايير ومفاهيم، وذلك من خلال الترويج للحضارة الأوروبية، وضرب الحضارات الأخرى، أو طمسها، أو الإنقاص من قدرها أو خلطها بما يلغيها، وهو أمر يؤدي بالشعوب إلى فقدان هويتها ومقومات شخصيتها الأساسية وإلى ضرب عوامل وجودها المادي والثقافي المستقل لتصبح مكشوفة أمام طغيان المستعمرين، ثم تتحول إلى تابع ذليل يلتقط الفتات، ويقف على العتبات دون السماح له بالدخول إلى صدر البيت[١].

والشيء الوحيد الممكن في العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولو من الناحية النظرية هو التعاون، على أساس استقلال كل منهما، وعلى أساس انفراد كل واحدة منهما بخصائصها الذاتية المتميزة دون أن تحاول السيطرة أو ظلم ونهب الأخرى.

وهو الأمر العسير بالنسبة للحضارة الغربية التي أقامت أيديولوجيتها على مبدأ الاستعمار منذ عهدها بنا، وإن لم نكن نعاني الآن من الاستعمار، بمعنى الاحتلال، فإننا نعاني من

---

[١] منير شفيق – الإسلام في معركة الحضارة.

استعمارا أخطر على الحضارة الإسلامية، وهو استعمار عقل وفكر وليس استعمار أرض ووطن.

والإسلام بالطبع يرحب بالتعاون، ويدعو إليه في إطـار الاحترام المتبادل والعلاقات المتكافئـة، ولكـن هـل تقبـل الحضارة الغربية التخلي عن النهب والظلم والعنصرية مـن أجل هذا التعاون.

لنأخذ مثلا مجال العلوم الطبيعية، وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم خاص بالحقائق العلمية والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم لاتجاه معين أي لإنتاج سـلعة ضـرورية أو كمالية للقضاء على مرض أو لنشر مرض، لإنتاج أدوات تسعد الإنسان أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها.

أي أن هناك شقا علميا وشقا قيميا، في حين أن الحضارة الإسلامية عندما كانت متقدمة علميا، كانت توجه هذه العلوم لخدمة الإنسان، ولإسعاد وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعيا لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين، لأن حبس العلم جريمة في الفقه الإسلامي.

أما الحضارة الغربية عندما تقـدمت علميـا اسـتخدمت منجزات العلم في تحقيق أكبر وأبشع وسائل النهب والقهـر والظلم، بل إنها تحجب العلم عن الشعوب الأخرى وتحـاكم من يجرؤ على نقل شيء من هذا العلم إلى بلاده [1] بل تغتال كل من ينجح علميا في البلاد الأخرى أو تغريه لترك بـلاده والعمل بها.

على أية حال من الناحية النظرية يمكـن التعـاون مـع الغرب في الاستفادة من العلوم الطبيعية ونقلها دون ربط ذلك بغايات وأهداف استخداماتها، أي في الشق العلمي دون الشق القيمي، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية ذلك؟.. وهي التـي تغتال العلماء وتحرم نقل العلم وتحاكم من يفعل ذلـك، بـل وتضرب أي نهضة علمية في أي مكـان خـارج دائرتهـا الحضارية.

ونؤكد مرة أخرى أن الإسـلام يحـض علـى التعـاون ويحرص عليه، ولكن التعاون غيـر الانـدماج والتـزاوج والإلحاق، التعاون القائم على الاستقلال حضاري كامل.

---

[1] قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلا، وهو مهندس مصري تمت محاكمته وحبسه في أميركا بتهمة سرقة أسرار التكنولوجيا.

والحضارة الغربية عندما نقلت العلـوم الطبيعيـة عـن الحضارة الإسلامية عن طريق المعابر ووسـائل الاتصـال المختلفة، أخذتها دون شـقها القيمـي، أخـذتها وهضـمتها ووجهتها وفقا لمعاييرها الحضارية، وجهتها للتدمير والتلويث والإفساد وتحقيق أكبر قدر من آليات النهب.

ونحن بدورنا علينا أن نأخذ العلوم الطبيعية من الغـرب دون شقها القيمي، وهذا لا يتم إلا انتزاعا لأن الغرب يرفض ذلك، وأن نهضم هذه العلوم ونجعلها جزءا مـن شخصـيتنا الحضارية المستقلة فنوجهها طبقا لمعاييرنا وقيمنا الحضارية في إسعاد الإنسان وتحقيق الرفاهية لكل البشر.

***

وبما أنه لا يمكننا أن نقبل الإلحاق الحضـاري والتبعيـة للغرب، ولا يمكن أن يحدث تزاوج وتفاعل حضـاري بـين الحضارتين الغربية والإسلامية لأنهمـا تابعتـان لعـائلات حضارية مختلفة تماما، وبحكم طبيعـة الحضـارة الغربيـة وبحكم الروح العنصرية تجاه المسلمين التي تسودها وبحكـم التاريخ المفعم بالصدام بين الحضارتين فإن فكـرة التعـاون نفسها تبدو مستحيلة.

إذن فالمعركة حتمية، ولا سـبيل هنـاك إلا المواجهـة، أو الموت، والمواجهة مع الهزيمة أفضل من الخضوع؛ لأن المواجهة مع الهزيمة ربما تعطي الفرصـة فـي الصـمود والحفاظ على البذور صالحة تحت التربة لتعود مـن جديـد لتثمر في مرحلة أخرى، ولكن الانصياع والخضوع، لا يعني فقط خسائر فادحة في الحاضر، بـل يعنـي أيضـا تـدمير المستقبل لأنها تصيب البذور الكامنة تحت التربة، والمعركة هنا معركـة حضـارية شـاملة، أي سياسـية واقتصـادية واجتماعية وعسكرية وثقافية، والغرب يسـتخدم معنـا كـل الوسائل السياسية والعسـكرية والاقتصـادية والاجتماعيـة والثقافية أيضا.

وما دام الغرب يشن علينا حربا شاملة فلا بد من مواجهته بحرب شاملة أيضا، لا بد من مواجهتـه بالكفـاح المسـلح والحرب الشعبية ومواجهته بالوسـائل السياسـية ورفـض الخضوع لوسائل النهب التي يمارسها، من خلال بناء نمـط اقتصادي مستقل وغير تابع يعتمد على قوانا الذاتية ويقطـع خيوط التبعية الاقتصادية مع الغرب تماما، ونواجهه أيضـا بتصفية كل مراكز الثقافة المغتربة، وكل أشـكال الاختـراق

الثقافي، بثورة ثقافية شاملة تعتمد على تأكيد قيمنا الحضارية، ونواجهه بالوحدة ورفض التجزئة التي فرضها علينا، بتعبئة شعبية شاملة، فنواجهه بحرب حضارية شاملة في مواجهة حرب حضارية شاملة.

ويجب أن ننتبه إلى نقطة خطيرة في هذا الصدد – وهي أن أخطر المواجهات هي ما تكون على الجانب الثقافي، لأن الاختراق الثقافي يدمر حيويتنا من الداخل، ويقلل قدرتنا على المواجهة، ويضرب في داخلنا القيم الإيجابية مثل الجهاد والوحدة وبالتالي يجعلنا عاجزين عن المواجهة في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، ولا بد أن ننتبه إلى أنه ما دامت الحرب حضارية وشاملة فليس من المعقول مثلا أن نستخدم قيما ووسائل واستراتيجيات مستمدة من الغرب لمحاربته بها، مهما كانت براقة فإنها لن تجدي في مواجهته، فكيف أواجهه على أرضيته الحضارية والثقافية، لا بد أن أواجهه بأساليب وقيم ووسائل مستمدة من ذاتنا حتى تظل قادرة على الاستمرار.

***

هناك من يروجون بأنه لا قدرة ولا سبيل إلى مواجهة الغرب، وأن توازن القوى مختل تماما لصالحهم، ولذا فإن المواجهة لن تفيد ومن الأفضل الخضوع أو البحث عن سبيل لتفاهم، وإذا كنا ندرك أنه لا سبيل للتفاهم فإن المتاح وفقا لمنطق هؤلاء هو الخضوع فقط.

وحتى إذا سلمنا بصحة المقدمة وهي أن الغرب قوي بدرجة لا يمكن مواجهتها فإن النتيجة التي توصلوا إليها بناء على هذه المقدمة نتيجة خاطئة، لأن معنى مثل هذه القوى الهائلة للغرب أنه لا مناص من الخضوع، ناسين أن الخضوع سيؤدي إلى النهاية، والموت والاندثار، وأن هذا الخضوع لن ينقذنا، ولن يحقن دماءنا، بل إن الخضوع يتسبب في خسائر أكثر كثيرا من المواجهة، حتى لو كانت غير متكافئة، على الأقل المواجهة سوف تقلل الخسائر أو سوف تسمح للبذور الكامنة تحت التربة بالبقاء بعيدا عن يد الغرب فتعود لتثمر في فرصة أخرى مستقبلية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحضارة الغربيـة تحمـل فـي داخلها الكثير من نقاط الضـعف التـي ينبغـي اسـتثمارها أو الصمود وانتظار أن تتحول تلك النقاط من مرحلة الضعف في جسد الحضارة الغربية إلى مرحلة انفجار داخلي يـؤدي إلى انهيارها، وهو أمر متوقع إن شاء الله تعالى.